

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العربي معترّون والكُل يستولي على
دعنا لهم بضمن استمرار عطائهم
(أبو عبدو)

الشياح



WING

رواية



إسماعيل فهد إسماعيل



<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>

أبو عبدو الخيل البغل

اسماء عيل

فهد

اسماء عيل

الشباب

رواية

دار الآداب

الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨

الامضاء : الى

المسلم

اسماعيل

على الحائط كتابة بالطباشير :
« هم يريدون الحرب »
والذي كتبها
سقط صريعا

« بريخت »

تقديم

... وأنت تترك شارع الحمراء متابعا سيرك غربا حيث تبدأ الأرض
انحدارها التدريجي يطالعك البحر الأبيض أزرق ، معاندا ، كبيرا ،
ممتدا بامتداد الأفق .

احساس صغير يفرض نفسه عليك : « هذا البحر لا يبالي بكل الذي
يجري في الداخل »

وعندما تهبط على وجهك نسماته برطوبتها ونداوتها ، حاملة رائحة
الماء والسمك ، قد يفامرك الشك في حقيقة ما يسمى صخرة الانتحار :
« أتى لمائة الطبيعة هذه ان تشجع انسانا ما على قتل نفسه ؟ ! »

ولعل وجود البحر من جهة ، وبسبب من كون منطقة الروشة سياحية
قبل كل شيء من جهة اخرى ، هو السبب الذي نأى بها ان تكون مسرحا
للاشتباكات التي تعاني منها مناطق بيروت كافة .

لهذا السبب وذاك - وفي الاماسي على وجه الخصوص - كنت ترى
شعلا صغيرة من السواح ، السعوديين ، والقطريين ، والكويتيين -
بسياراتهم الفارحة ، المزدودة - يتنقلون ببطء عبر مسافة لا يعدو طولها
الكيلومترين . يسعى كل منهم لئلا يتعرف على الآخر ، دون ان يفتوا فرصة
احساسهم بأنهم ما زالوا يصفافون . وفي لبنان بالذات .



القِسْمُ الأوَّل



□ جاءنا من مركز الارتباط ما يلي :

جميع المنافذ المؤدية الى بيروت - ومن دون استثناء - غير
آمنة ، وغير سالكة

كافة الطرقات في داخل العاصمة غير آمنة وغير سالكة ، بسبب
انتشار القنّاصة فوق اسطح البنايات ، ووراء النوافذ .

الاشتباكات بكل انواع الاسلحة - ومنها الصواريخ - لا تزال
تشمل كلا من المناطق الآتية :

الشيخ • عين الرمانة • المسلخ • فرن الشباك • سن الفيل •
الطيونة •

على الاخوة المواطنين ملازمة منازلهم ، وعدم مغادرتها حتى في
الحالات الضرورية ، حرصا على سلامتهم •

اما عن المواطنين المتواجدين في مناطق الاشتباكات فالمطلوب منهم
ملازمة الملاجئ ، وعدم مغادرتها اطلاقا ، ولاي سبب كان ...

□ سيداتي سادتي : اليكم هذا النبأ السار :

قررت شركة التلفزيون - مشاركة منها في التخفيف عن المواطنين

الذين اجبرتهم الظروف الطارئة على البقاء في منازلهم - أن تبث برامجها على قنواتها العاملة ، طيلة ساعات هذا النهار ، وحتى ما بعد منتصف الليل ، حيث يصبح بإمكان الجميع قضاء اوقات ممتعة امام شاشات التلفزيون ، علما بأن انفراج الازمة بات وشيكا .
والان نستمع واياكم الى هذا الفاصل الموسيقي .

امتدت يد بولص الى الراديو الترانزستور ، الموضوع عند قاعدة العمود . صدمته فانقلب .

بقيت الموسيقى الحماسية تواصل خشخشتها لثوان ، قبل ان تهتدي اصابعه المحروقة الى مفتاح الاتصال .

خيّم صمت ثقيل على السرداب ، ساد فترة قصيرة ، تعالت على اثرها اصوات الانفجارات في الخارج .

- افتح الراديو !! دعنا نعرف ما ..

قال حنّا ولم يتمّ ، أزيز أحد الصواريخ يخترق الهواء في اللحظات التي تفصل بين انفجار وآخر ، فيحبس الجميع انفاسهم بانتظار تحديد مكان سقوط الصاروخ ، سوى هممة خافتة ، مفزوعة صدرت عن زينب :
- « يا رب !! »

قالت وهي تحضن رضيعها على صدرها . تملّمل جنّد الطفل في اللحظة التي دوى فيها صوت الانفجار ، واحس الجميع كما لو ان الارض تهتزّ تحتهم .

- أظنه أصاب المبنى المجاور !

....

ومن وسط الظلام انبعث صوت بولص ، رادّا على السؤال الاول

لحنّا :

- بطاريات الراديو بدأت تضعف . الاحرى بنا ان نقلل من

استعماله .

وصمت برهة قبل ان يستطرد بصوت معتم :

- من الذي يعرف متى ستنتهي هذه الحرب !!

— لو انهم توصلوا الى تشكيل وزارتهم !!
لكن احدا من الموجودين لم يعقب بشيء على تساؤل اسعد ، مما
دفعه هو الاخر الى التزام الصمت ، والاكتفاء بمحاولة تحديد اماكن
الانفجارات المتوالية خارجا .

خلال الشهرين الماضيين — وعلى الرغم من ان الاشتباكات كانت
تشتد بين يوم وآخر — لم تتعرض منطقة الشياح الى ما يقرب من الدمار ،
بل ان الاصابات المباشرة وقعت في اماكن متفرقة ، ومتباعدة الى حد ما ،
مما أدّى الى وقوع عدد محدود من القتلى والجرحى بين السكان .

وفي الحين الذي بدأت فيه تباشير انقراج الازمة تلوح في الافق
بعد انصرام الشهرين الساخنين ، يضاف الى ذلك النشاط المكثف الذي
بدأه الرئيس المكلف من اجل تأليف الوزارة بدعم من بعض قادة القوى
السياسية للخروج بالبلد من حالة الحرب الداخلية ، عاد الوضع المتأزم
الى التفجر من جديد ، ولسبب يبعث على الدهشة .

- * شابان عراقيان يتعرضان لفتاة من حي عين الرمانة .
- * الشابان العراقيان يوجهان الى الفتاة كلمات بذية بعدما رفضت
مصاحبتهما .
- * الشابان يحاولان اصطحاب الفتاة عنوة واختطافها .
- * الفتاة تستنجد .
- * دماء الذود عن العرض تتدافع فوارة في شرايين فتوة عين الرمانة .
- * الشابان العراقيان ينالان جزاء استهتارهما .
- * احد الشابين يصاب بطعنة خطيرة من سكين مجهولة الهوية .
- * فتوة عين الرمانة يضعون المتارين على مداخل الطرق المؤدية الى
الحي تحسبا للطواريء .

يوم اربعاء من شهر يونيو ٧٥ هو يوم مغامرة الشابين العراقيين
ومنذ مساء يوم الخميس اللاحق ومنطقة الشياح تتعرض لقصف عنيف ،

مركز ، بالمدافع والصواريخ ، الى جانب الاسلحة الخفيفة .

✱ الشياح وعين الرمانة منطقتان متجاورتان .

✱ العالمون ببواطن الامور افادوا :

— الشابان العراقيان لا يد لهما في الامر .

— فتاة عين الرمانة بريئة براءة الذئب .

— الهدف من تجدد الاشتباكات هو تصعيد الازمة حد الانفجار ،

المؤدي الى حرب اشبه بالاهلية بقصد جرّ الجيش الى موقع غير محايد .

— الهدف الابعد من وراء هذه المواجهة المرتقبة هو تصفية المقاومة .

المتنفذون من عين الرمانة افادوا :

— لا يد لنا في القصف الذي تتعرض له الشياح ونحن بالمقابل —

لو تعلمون ! — تتعرض لقصف أشدّ .

الشياح .. منطقة الفقراء . من شغيلة لبنانيين وفلسطينيين لم

تجد من يتحدث باسمها .

✱ المحظوظون من سكانها — فقط — هم الذين وجدوا لهم ملاجيء

في سرايب بعض بناياتها .

وقسم آخر كان لهم حسن توقيت مغادرتها الى القرى قبل تجدد

الازمة .

هدوء نسبي بدأ يشمل منطقة الشياح في الساعة التي تمتد ما
بين انبلاج الفجر وشروق الشمس •

في داخل السرداب تحولت الاجساد والاشياء الى اشباح غير محددة
المعالم ، وفي الخارج كان ركام البنايات اشبه بتلال يلتفها ضباب رمادي
اللون •

— اظنه دوري !

قال اسعد ، ولم يتلق اجابة ما سوى نحنة خشنه صدرت عن صدر
بولص مما يدل على انه ما زال مستيقظا •

رشقات مدفع رشاش معاند تسمع في البعيد بين حين وحين •

— لن اغيب طويلا •

عاد اسعد الى القول ، وانطلق يتلمس طريقه باتجاه مخرج
السرداب •

— اسمع !

هتف بولص ، فكفت قدما اسعد عن المتابعة •

— انت تعرف بأن هدتهم هذه لن تطول •

— ••••

— قد ينهر عليك رصاص القنّاصة حال مغادرتك الباب • هم يطلقون النار على كل جسم متحرك •

يستند بصف جسده الاعلى على كومة مواجهها محدّته دون ان يراه •
— انحن قدر الامكان • اركض باسرع ما تستطيع ، وبخط

متعرج •

همهم أسعد ، واستدار •

— تلك امور تعلمناها ايام الجيش •

اتمّ بولص محدثا نفسه ، وعاد يستلقي على قفاه في الوقت الذي غادر فيه الاخر ، مخلّفا صريرا خافتا صدر عن البوّابة الحديدية للسرداب •

أرهف بولص اذنيه •

« لعله وفق في اجتياز الشارع ! »

أذناه لم تسمعا اطلاقات نار قريبة المصدر •

« لو اتبع تعليماتي لعاد سالما ! »

صاروخ ما يحدث انفجارا مدوّيا في البعيد •

« خمس وثلاثون سنة خدمة في الجيش ، ولم تر عيني حربا بمثل

هذه الضراوة ! »

ابتهامة ساخرة انتصاعد الى شفّتيه ، تنحشر ضمن حديثه مع نفسه •

« لكنني في الحقيقة لم اشارك في اية حرب •• كنتا اشبه بافراد

فرقة كشافة » •

وعندما تداعت في ذهنه صورته وهو في بذلته العسكرية ايام شبابه

سحب لصدره نفسا عميقا •

« كانت جميع القرص سانحة لي كي اتزوج »

وتملل في اضطجاعه • الارض الاستتبّية تحزّ دفتيه ، وعظام

هوضه •

« السن ! »

وشيء ما آخر يخزه في جنبه • مدّ يده • طقم الاسنان •

تذكر جوعه • منذ ظهر امس •
« لو عاد اسعد سلما ... »

أمران لا علاقة لاحدهما بالآخر كانا يحيرّان بولص •
الاول : هذه الحرب الدائرة ، والتي لا يرى لها تبريرا منطقيا محقولا •
والثاني : الحظ ، سواء في الحياة او الموت •
بالنسبة للامر الاول استطاع ان يتوصل الى قناعة أرضته نفسيا ،
ولو الى أمد • ففي الحين الذي انطلقت فيه الشائعات :
* هي حرب صليبيّة بين مسيحيين ومسلمين •
وقف بولص وقتها حائرا •
« كيف ؟ »

لكن حيرته تلك لم تدم طويلا بعدما تبرّع حنّا الشاب الذي
يتلقى دروسه في الجامعة الامريكية موضّحا :
- القضية لا تحتاج الى تفكير •

- تفكير ؟

- بطبيعة الحال هذه الحرب ليست حربا صليبية •
- صليبيّة ؟

- فالكبار من مسيحيين ومسلمين حتى لو تنافسوا على منصب او
قيادة او مصلحة .. لن يتذابحوا •
- يتذابحوا ؟

- قد تراهم في النهار وهم يتبادلون الاتهامات والخطب ، لكنهم
في الليل ..

فيتفتق فم بولص عن ابتسامة كبيرة •
« العرق والمأزة »

- والمصالحات ، اما نحن الفقراء ..
قال حنّا ، وانشد انتباه بولص :
- فلا مصلحة لنا بالاعتقال •
- هذا صحيح •

ردد بولص ، واكمل :

— ... فأنا وامثالي لا نبغي سوى الحصول على لقمة يومنا .

ثم عاودته الابتسامة .

— .. والكأس مرة في الاسبوع ان أمكن .

— اراك تفهم بشكل جيّد !

فانعقد حاجبا بولص ، وتجددت الحيرة واضحة في وجهه ،
قبل تساؤله :

— ولكن .. لماذا الحرب !!?

كان هذا الحوار قد دار بينهما قبل شهرين تقريبا ، منذ الايام الاولى
للأزمة . ساعتها لم يتردد حنا عن الاجابة :

— اظنك لن تفهم هذه المرة بسهولة لو قلت لك : بأن الصراع الطبقي
من جهة ، الى جانب وجود المقاومة ...

فما كان من بولص الا ان رفع كفته امام وجه حنا .

— انا معك .. تلك قضايا يصعب عليّ فهمها ، لكن المهم اني
عرفت : هذه الحرب ليست صليبيّة كما يدعون .

اما عن الامر الثاني :. الحظ . فلا يزال بولص يقف امامه حائرا ،
على الرغم من كونه يتعاطاه يوميا .

عندما شرّح بولص من الجيش بسبب كبر سنّه ، مزودا بلقب « عريف متقاعد » خُصّص له مرتب تقاعدي لا يكاد يفي ثمن العرق الذي اعتاد على شربه في بار مكسيم مساء كل يوم سبت مذ كان شابا .
ولانه بدأ يعاني من احساس حاد معذب بالبطالة فقد ازدادت رغبته للشرب ، وكذا حاجته لدخل آخر يضاف الى مرتبه .

في البدء مارس مهنا صغيرة تحتاج الى رأسمال صغير ، بيد ان ساعات تجليّه في بار مكسيم - وهي كثيرة - كانت - دائما - تأتي على رأس المال المستلف وكذا ربحه الضئيل ، فكان ان اخذ - منذ سنة تقريبا - بنصيحة جاره اسعد ، واحترف بيع تذاكر اليانصيب ، فمثل هذه التجارة لا تحتاج اي رأسمال .

خلال الاشهر الستة الاولى لتعاطيه هذه المهنة صادف الحظ ثلاثة من الذين باع لهم ، فربحوا مبالغ معقولة ، ولكنها بالنسبة اليه كانت خيالية ، وبسبب من التعب المستمر الذي تتطلبه مهنته ، حيث يتجتم عليه ان يذرع شوارع ييزوت مناديا على بضاعته :

— السحب يوم كذا ...

قرر بينه وبين نفسه ان يضع حداً لتعبه ذاك ، ولكي يقضي شيخوخة مطمئة ، وينعم بحبوحة من العيش ، احتفظ لنفسه ببطاقة

اختار رقمها بعد تردد طويل •

ولمّا لم يصادفه الحظ في تلك المرة ، غامر واحتفظ بعشر بطاقات في المرة الثانية ، مما اضطره في الاسبوع الذي تلا عملية سحب البطاقات الى الغاء سهرة امسية السبت ، وكذا مع السبت اللاحق ، الى جانب تنازله عن الكثير من الضروريات المعاشية ، وتعليقا على هذا الحادث قال له اسعد ضاحكا :

— انت تبيع الحظ ، لكنك لا تقتنيه •

بولص — ساعتها — شارك اسعد ضحكه ، على الرغم من كونه لم يهضم ما قيل له ، بيد انه وفق الى الاستفادة من هذه المقولة للخروج من مأزق صغير تعرّض له ذات يوم في شارع الحمراء •
كان الوقت عصر يوم سبت ، وبولص بأمس الحاجة لان يبيع ، مما اضطره للتشبث بأذيال شاب أنيق قائلا بما يقرب من التوسل :

— اشتر تريح !

فتوقف الشاب عن متابعة سيره •

— أأنت واثق بأن بطاقتك هذه سوف تريح ؟

— اي والله !

فافتّر فم الشاب عن ابتسامة واسعة •

— احتفظ بها لنفسك اذن •

لم يفغر بولص فمه دهشة •

— انا ابيع الحظ ، ولا اقتنيه •

أجاب برباطة جأش تناسب المقام ، وانقلت مبتعدا عن الشاب بخطوات واثقة •

اما عن امر الحظ مع الموت ، فذلك ما يحيره اكثر من سواه •
ظهر امس الاول اشتدّ العطش بالمتواجدين داخل السرداب ، فقنينة الماء التي استولى عليها اسعد في الفجر من حانوت البقالة الذي في طرف الشارع نفذت منذ الضحى ، وعويل الطفل الرضيع — ابن زينب — يحزّ في القلب • عندها وقف حنّا فجأة قائلا بتصميم :

— سأخرج !

فتساءل بولص مندهشا :

— في مثل هذا القصف !؟

بينما تعلقت عينا زينب بوجهه من غير ان تبس بحرف •
عينا امه مارسيل اغرورقتا بالدمع حال مغادرته الباب ، ولم تجد شجاعة
على النظر من النافذة التي في أعلى جدار السرداب الى الشارع • بولص
كان — كما هي العادة — قد نصحه قبل خروجه :

— انصبر قدر الامكان • اركض ما تستطيع ، وخطط متعرج ••
ثم اضاف بصوت خافت :

— تلك امور تعلمناها ايام الجيش •

من الشارع تعالت اصوات زخات رصاص القنّاصة ، وما ان عاد
عاد حنا حتى احتوته مارسيل بين ذراعيها غير مصدقة ، وجهدت زينب
في ان تمنع نفسها عن احتضانه ، وهو المسيحي ، فقبّلت منه كتفه •

— « يخليلك شبابك !! »

كان يحمل قنينة ماء سالمة •

— أنت واثق بأنك لم تصب !؟

تساءل بولص بصوت راعش •

— لا •• لم ••

اجاب حنا بسعادة • فتنفس بولص الصعداء • كان بلا اولاد •

وبالمقابل هناك البناية التي شهد بولص انهيارها ظهر أمس ، من
نافذة السرداب •

البناية تتألف من طوابق اربعة • تقع عند الزاوية اليمنى من الجانب
الثاني للشارع •

صواريخ لا يعلم بولص عددها انهالت على البناية ، فتداعت •

اسعد صرخ :

— انظروا !!

جدران باكملها كانت تتفكك لتهاوى مصدرة دويا هائلا لىدى
سقوطها .

المجتمعون وراء نافذة السرداب حبسوا انفاسهم . الغبار الذي
تصاعد من جراء الانهيارات لفّ البناية من جوانبها كافة .

— اظنها بلا سرداب !

تساءل اسعد ، فأجابه حنّا :

— بل هي بسرداب كبير يضمّ اكثر من خمسين .

— ترى ...

قال أسعد وصمت لحظة .

— ... هل بمقدور سقف ذلك السرداب مقاومة ثقل الانهيارات !؟

—

سؤال اسعد بقي معلقا دونما اجابة ، وظلت عيون الجميع —

مأخوذة — باتجاه الغبار .

الغبار بعد حوالي دقيقة انجلى عن جسد واحد ، شوهد وهو يبدل

جهدا كي يقف على قدميه .

— اظنها امرأة !

قالت مارسيل .

— هي ... على ما اعتقد ..

لكن رشقة رصاص من مدفع رشاش مجهول المصدر قذفت بالجسد

المتهاك الى عرض الشارع ، كما الخرقه البالية ، فوضعت حدّا حاسما

لحدس زينب ، واطلقت في الوقت نفسه صرخة هلعة من قاع حنجرة

ابنتها الكبرى فائزة .

— اذن ..

ولم يجد حنّا كلمة اخرى يضيفها . اكداش الجدران الهائلة لم

تتمخض عن حيّ ثان . وجسد المرأة بقي ممزقا في عرض الطريق .

« والآن ا »

غمغم بولص لنفسه بمرارة ، عيناه مثبتتان على السقف الواطيء .

« .. ما هي نسبة حظ اسعد في ان يعود سالماً ؟! »
الآخرون لا يزالون ينامون ، او لعلهم يتظاهرون بالنوم .. سقف
السرداب مليء ببقع ملحية مشوهة الزوايا .

« وما صدر عن اي منهم اقتراح : حلّ دورك للخروج يا بولص »
احس بجفاف مثر في شفتيه . مدّ لسانه ، ومرره عليهما .
طعم النيكوتين ينتقل من شعرات شاربه الكث الى لسانه .
تذكر أمرا غاب عن ذهنه .

« لو اني قلت لاسعد : اذا صادفتك علبة سجائر .. »

اللحظات الاخيرة لحياته •

ماذا لو انه عاد وقطع الخطوات الممدودة التي باتت تفصله عن باب
السرداب !

« انا آسف ! .. لا استطيع المواصلة .. اغلطني سأصاب بالاغصاء
بعد ثوان ! »

كفته اليمنى ستكون محتضنة للجانب الايسر من صدره ، ويتم :
« انا معرض لاصابة وشيكة بنوبة جديدة في القلب ، اغلني
اقوى من سابقتها »

حينئذ سيجدون من يبعثونه نياية • بولص مثلاً • وسيجدون ايضا
العذر المقنع له • حنّا • امه مارسيل • بولص • واخيرا زينب ... خاصة
وان الجميع يعرفون بأمر النوبة القلبية التي تعرض لها قبل شهر •
« هل أعود ؟! »

لكنه سرعان ما تذكر ما يحسم له ترده • وراءه في السرداب -
ما زالت فائزة - ابنة زينب - تنام الى جانب امها • مراهة في السادسة
عشرة • جسدها الشاب المتفجر لا ينبىء عن سنّها الحقيقية • لو كانت
تفهم الشعر ، لكتب لها قصيدة غزل ساخنة وحسم امرها ، اذ انها جديدة
بمغامرة جديدة •

زمام الامر لا يزال في يده • بقاؤهما في السرداب - هكذا - ولو
ليومين قادمين ، وربما اكثر ، سيزيد من رفع الكلفة ، وعودته فارغ
اليدين ...

« النوبة في قلبي ! »

سترجح من كفة حنا - منافسه الخطير - على كفته ، لان حنا
سيهتف دونما ادنى تردد :

- انا اذهب •

بل اسعد هو الذي سيذهب ، ولن يسمح ..

بعدها تذكر امرا غاب عن ذهنه بسبب من حماسه المنفعل •

« هذا فيما لو عدت حيّا ! »

وهو يجتاز الطريق راكضا بجسد مقوَّس دوى انفجار صاروخي
في مكان ما بعيد ، مما أدى الى اختلال توازن اسعد ، وتعثّر قدميه
بالارض ، فما كان منه الا ان وازن ما بين فرعه واندفاعه بصرخة حاقدة
!طلقها في داخله ، بأعلى صوته :
« اللعنة عليكم !! »

مظهره الجسماني لا يدل على سنّه ، شأنه شأن فائزة معكوسا .
ففي الوقت الذي تبدو فيه فائزة اكثر شبابا وتفجّرا ، يبدو أسعد
اكتر كهولة على الرغم من انه لم يتجاوز الثالثة والثلاثين بعد .
قامة طويلة . مقوَّسة بشكل يلفت النظر عند الكتفين . تستند الى
ساقين مقوَّستين ايضا . . رفيعتين ، الى جانب رأس صغير نسبة الى
الجهة العريضة التي تتقدمه والتي لا تنني تمّ عن صلح مبكر ، وعينين
متعبتين ، يجهد اسعد في اخفاء حاجتهما الماسّة الى عوينات طيبة ، ليس
ازاء الآخرين حسب ، فزوجته على الرغم من الحاحها الساخط والمستديم
في الوقت ذاته :

— قراءة الشعر لا تطعم خبزا !!

لا تعلم مدى الجهد المضاعف الذي يبذله سواء في القراءة ،
او الكتابة .

ولو انها لم تذهب بصحبة اولادهما الثلاثة لزيارة اهلها القاطنين في
منطقة الجامعة العربية صبيحة يوم بدء الاشتباكات الاخيرة مما اضطرها
للبقاء هناك ، لولا غيابها هذا ، لمنعت — كما يجزم — عن مغادرة السرداب ،
قائلة بصوتها الرجولي الأمر :

— اقعد انت ! .. انا اخرج !

وسيكون منعها له ليس نتيجة لخوفها عليه ، او تضحية من اجله ،
وانما بسبب ايمانها الراسخ بعدم قدرته على الاتيان باي عمل مشر .

عام ١٩٦٤ اكمل اسعد دراسته الجامعية (اجتماع) من جامعة عمان
— الاردن ، عاد بعدها مباشرة الى مسقط رأسه نابلس ، حيث عيّن

مدّرسا في مدرستها الثانوية ، وبعد شهرين تالين زوجة ابوه من ابنة
عمه جميلة . ساعتها لم يجد اسعد الجرأة كي يقف في وجه ابيه ليقول :

— جميلة تكبرني بأربعة اعوام !!

فالفقاة كانت مسمّاة باسمه مذ كانا طفلين ، ومذ كانا طفلين وجميلة
تستطيع في اي وقت تشاء ان تظهر لاسعد تفوقها العضلي والنفسي .

— أنت رجل بيت !!!

تساءلت بسخرية مرّة في الايام الاولى لخطوبتهما ، على اثر فشله
في العثور على بيت يستأجرانه ، قصد السكنى فيه بعد الزواج .

وعلى الاثر سمحت لنفسها بتسلم زمام امورهما كافة دون
الرجوع اليه .

من جانبه لم ير مبررا لرفض زعامتها ، ووجد تعويضا في بحث
صابر جاد — لم يكلل بالنجاح بعد — عن علاقة اخرى بديل ، بامرأة
جميلة ما ، تستطيع ان تجسّد له احلامه العاطفية ، وتكون — في
الوقت نفسه — متنفسا حقيقيا لطموحاته الشعرية .

في حزيران ١٩٦٧ اضطر مع من اضطرهم الاحتلال الى مغادرة
الضفة الغربية ، ليستقر به المقام — نتيجة لعلاقات عائلية — في بيروت ،
حيث وفق للالتحاق بالعمل لدى احدى دور الصحف كمحرر للشؤون
الادبية .

وفي بيروت وجد متنفسا جديدا للطاقة ، فانخرط متطوعا في
احدى التنظيمات الفدائية ، ليطرد منها بعد اشهر بتهمة السعي لخلق تكتل
سري مستقل داخل صفوف شباب التنظيم .

ساعتها لم يجد اسعد بأسا في طموحه الذي كان ينزع الى الزعامة ،
ودافع عن وجهة نظره بقوله :

— ما كنت أهدف لخلق تنظيم سري ضمن التنظيم ، بل كنت اهدف
لخلق انسان عربي ، فلسطيني ، عقائدي ، مقاوم ، وواع .

لكن وجهة نظره تلك لم تجد صداها المناسب لدى اي من المقربين
اليه ، ومن ضمنهم جميلة زوجته ، التي قالت له يوما باحتقار .

— انت غبي كبير !
فلم يوفق ازاء نعتها ذاك الا ان يردد بهمة يصاحبها احساس
بالخزي :
— الله يسامحك !!

— الله يسامحك !!
رددها بحزن حقيقي في المرة الثانية ، عندما منعه جميلة عن مغادرة
المنزل ، بقصد الذهاب لمزاولة عمله المعتاد في الصحيفة .
— ما منعك عن الخروج لرغبة في نفسي ..
قالت ، واتمت اثناء انصرافها لاداء شأن اخر من شؤون المنزل :
— ..وانما ليقيني بانك ستتسبب لنفسك بسوء اعتباطي ، لا مبرر له !
كان ذلك اثناء اشتداد احدي الازمات التي غالباً ما تنشب بين
المقاومة والسلطة .

« لو ان جميلة هنا .. »
« — اقعد ! »
« أما وهي غائبة .. »
حيرة قاتمة . حزن بطعم الغربة . لعل حياته اقترنت بوجودها عبر
منعها له عن الخروج ، وغياها سيؤدي به الى ميتة اعتباطية لا مبرر لها .
خرج من السرداب . طعام . ماء . مات . اصابته رصاصة طائشة .
« الرصاصة الطائشة تؤدي الى موت طائش »
لو كان في الثمانين من عمره . في السبعين ، في الستين ، فسي
الخمسين على الاقل لهان امر الموت ، اما وهو في المستهل ..
« هذا امر مرفوض !! »

وعلى الاخص الآن ، حيث لم تتوفر له فرصة الاتهام من وضع
اللمسات الاخيرة على ملحمة الشعرية المطولة ، التي بدأ العمل بها منذ
اكثر من سنتين .. « البحث عن الحقيقة » والتي ينتظر لها ان تحدث

دويّا هائلا ، ليس في صفوف الفلسطينيين وحدهم ..

غبار الفجر يتكشف رويدا رويدا عن الدمار الذي حلّ بمنطقة الشّياح .

اكادس متطاولة من الاسمنت والطوب والحديد والاثاث المحطم والالوانى ، اختلطت ببعضها البعض .

الرياح الرطبة تحمل ملاحع من روائح تنّة تكاد تزكم الانف .
« اظنه عفن الجثث ! »

حركة صغيرة . فتوترت عضلات اسعد ، وتجمّد الدم في عروقه ، قبل ان يجرؤ على الالتفات . كلب ضال يدس بوزة وسط الركام .
« هش ! »

الكلب يقفز مبتعدا . الطرقات مقفرة اقفاارا تاما . لا بد من وجود الكثيرين من الاحياء في سراديب البنايات الكبيرة ، او تحت الانقاض .
أرهف اذنيه . اطلاقات متلاحقة لمدفع رشاش يتجاوب صداها على البعد .

« يجب ان اسرع ! »

عند الركن الاخر من زاوية الشارع حانوت بقالة « التسامح » . في اليوم الاول للاشتباكات كان الحانوت مقفلا ، وفي اليوم الثاني تعرّض لهجوم مباغت من جانب بعض سكان السرايب .
الحاجة الانسانية الماسّة الى الماء والطعام . الاقفال كسرت ، والباب بقي مشرّعا .

اول امس وفق اسعد في الوصول الى « التسامح » ، وجد فيه ما يزيد عن الحاجة .

تسمرت قدما أسعد أمام باب حانوت التسامح • حاجباه ينعقدان
 بدهشة رافضة • الرفوف خاوية تماما، وعلى الأرض تناثرت بضعة
 صناديق خشبية محطمة، إلى جانب أكياس وعلب فارغة •
 « سكان السرايب اتوا على كل الذي فيه ! »

اطلاقات المدفع الرشاش تقترب •

« لعلها سيارة جيب ! »

أعنى ركبتيه قليلا • وبقفزة واسعة أصبح وسط الحانوت •

فأر كبير ينفلت من بين قدميه •

« اللعنة !! »

واستلقى على بطنه • يثار الزجاج • العلب ... في الوقت الذي

اقترب فيه صوت اطلاق الرصاص •

ضجيج محرك • رشقات متلاحقة من الرصاص • صرخة امرأة •

مرور سيارة جيب مسرعة ، خيل لأسعد بأن هيكلها كان بلون العشب
 الجاف •

انتظر قليلا قبل ان يزحف خارجا • هل يبحث عن مصدر الصرخة •

« - انت غبي كبير ! »

ليس وقتها • المهمة التي خرج من اجلها أولا • شحذ افكاره محاولا
رسم خريطة للمنطقة في ذهنه •
حوانيت البقالة ترفض الظهور بوضوح ضمن معالم خريطته الذهنية
في البدء •

نهض على قدميه بعدما تأكد - ضمن خريطته المتخيلة - من وجود
حانات للبقالة كبير - بياين - يقع وراء المنعطف الذي الى يساره •
« لعله لم يتعرض لنهب كلي ! »
وعندما أطل برأسه ناحية الطريق المتفرعة يسارا ، تملكته الدهشة ،
فكتم انفاسه •

« من هنا جاءت الصرخة اذن ! »

امرأة وسط ، شعناء الشعر • تستند متهاكمة على الجدار غير بعيد
عن باب الحانوت • يدها تلم أحشاءها • شاب صغير السن يقف قبالتها
مشدوها ، مضيق النظرات ، وفي الوقت نفسه هناك شابان آخران كانا
يمالجان بمجالة مضطربة اقفال باب الحانوت •

الشبان الثلاثة لم يصحبوا المرأة معهم في طريق عودتهم ناحية
سرداب البناية الواقعة في الطرف الآخر للمنعطف •
اصغروهم - وحده - تلكا برهة امام الجثمان الذي سرعان ما
تداعى على الارض •

اسعد - ايضا - لم يتلكأ طويلا في وقفته • وانطلق راكضا باتجاه
الباب المشرع للحانوت •

الشبان لم يستولوا على الكثير • الرفوف مليئة بالبضائع • وقف
في الوسط حائرا • به رغبة لان يستولي على كسل شيء ، بدءا من
القناني البلاستيكية للمياه المعدنية ، و انتهاء بقناني الوسكي الاجنبي •
ولم يستطع حبس الابتسامة الواسعة التي تفتق عنها فمه •

« ليس وقتها ! »

كان قد تخيل اندهاش كل من حنا وبولص وهم يرونه داخلا

بزجاجات الوسكي •

« - انت مجنون !! »

« - بل اكثر !! »

« - من اين جاءتك هذه الفكرة الشيطانية !! »

وسيفضحكون ، او يفضبون ، لا يدري ، ولكن .. اليس الاخرى
بهم وسط هذا السجن القبوي - الذي لا يدري اي واحد منهم حتى
متى ستمتد بهم الايام فيه - ان يقضوا وقتا ممتعا • ما احلى ان سبكروا
- بكل ما لديهم من قدرة - وسط كل هذه الانفجارات •
وبولص ... ترى هل سيستطيع منع نفسه ان يرقص احتفاء
وفرحا ••

« لكن ! .. »

وتذكر أسعد فائزة ، قيل ان يتذكر امها بنظراتهما الصارمة •
فزم شفتيه حانقا •

اختار من بين الاكياس كيسا ورقيا متينا ، وكبيرا في الوقت ذاته •
قناني مياه اربع • لا .. بل ثلاث ، والا فسوف يمتلئ الكيس
بها دون سواها ، والافضل .. قنيتان • ست علب خضار متنوعة •
ثم فكر برهة •

خبز •• خبز •• اللعنة !! •• هو متعفن من جراء التخزين
والحر •• « البسكويت » يفي ببعض الغرض ، لكن - سبب
العطش • اذن قنينة ماء ثالثة •

وهو ينحني ليتناول القنينة البلاستيكية صدرت عنه انتفاة الى
رف قريب •

« السجائر !! »

الفرحة اكبر من ان تدع فسحة للتفكير • تناول مجموعة من العلب ،
ودسها في جيوبه •

« الثقاب مهم ! »

الملح •• غير مهم • السكر •• غير مهم • الرز •• من يتولسى

طبخه؟! .. طحين .. لا .. « مكرزات » .. ليس وقتها . كانت
الابتسامة قد عادت الى فمه . المزيد من المخبزات افضل . وعلى
الاخص اللحم .

قامته تنحني اكثر مع ثقل الكيس الكبير الذي يستند على وسطه .
« سيجنون فرحا ! .. سيأكلون ويشربون ، و .. »
ثم التمتعت في رأسه فكرة خاطفة .
« ويسكرون لو اخذت هذا ! »
اقترب بحمله من الرف المقابل .
« الآن ! »

وبحذر شديد فتح اصابع يده اليمنى ، دون ان يففل عن اسناد
الكيس . عنق زجاجة الوسكي يستقر - باردا ، ناعما - في باطن كفه .
اطبق اصابعه بقوة .

« لا فائزة !! »

ساخرة لا مبالية ترددت في داخله .
« لا امها !! »

وفتح اصابع يده اليسرى ، من اجل ان يطوق بها عنق زجاجة
اخرى .

« ولا بطيخ !! »

الزجاجتان تصادمتا ، فاصدرتا صوتا محببا الى اذنيه ، سرعان ما
ضاع وسط دوي انفجارات صاروخية قريبة .
« نهر الحرب بدأ »

وهو يركض عائدا باتجاه السرداب ، حانت منه التفاتة خاطفة ناحية
المرأة التي ما زال جسدها ينزف كما ذبيحة العيد ، فردد مع نفسه
قائعا :

« كان الاخرى بها ان تنبطح أرضا ، وتتناظر بالموت لدى سماعها
صوت محرك السيارة ! »

* بيان اعلامي صادر عن قيادة المقاومة :

« ورد في تصريح لاحد المسؤولين ما مفاده : ان قيادة المقاومة عاجزة عن السيطرة التامة على بعض فئاتها غير المنضبطة . »

ونحن اذ ننفي هذا الخبر نقيا باتًا وقاطعا ، نرغب ان نلفت انظار ابناء امتنا الى ان الغرض الكامن من وراء مثل هذه التصريحات غير المسؤولة هو استغلال طبيعة الظروف الراهنة ، بقصد تهيئة الجو الملائم لبذر اسباب الشقاق والخلاف بين صفوف طلائع شعبنا المناضل في سبيل وجوده ووطنه .

ونرغب كذلك بطمأنة الجميع الى ان فصائل المقاومة كافة ، ما زالت وستبقى منضوية تحت لواء قيادة منظمة التحرير ، وان مثل هذه الاكاذيب والاشاعات ... »

* جاءنا من مركز الارتباط ما يلي :

تردنا الكثير من الشكاوى والاستفسارات ، وعلى الاخص من المواطنين المتواجدين في مناطق الاشتباكات ، يتساءلون فيها عن اسباب انقطاع التيار الكهربائي عنهم ، وكذا امر الاتصالات التلفونية ، السى

جانب عدم توفر المياه الصالحة للشرب من جهة ، وندرة المواد الغذائية
من جهة اخرى .

وبطبيعة الحال فان الوضع غير العادي الذي يمر به هذا الوطن هو
السبب في ذلك . اذ ان مصادر المياه ، ومحطات الكهرباء قد تعرضت
لقصف مبكر منذ الايام الاولى للاشتباكات الاخيرة ، علما بان استمرار
هذه الاشتباكات سبب عجز العمال المهيأين لاصلاح العطل عن الوصول
الى الاماكن المعنية ، وكذا الحال بالنسبة لرجال الاطفاء والاسعاف ،
ونحن اذ نطمئن المواطنين الى ان الجهود الخيرة ما زالت تبذل ، وعلى
كافة المستويات ، من اجل انتهاء الازمة ، ووضع حد لاقتتال الاخوة ،
نهيي بهم ، ونطالبهم بالمزيد من الصبر والصمود داخل الملاجئ .

كانت الحياة قد دبّت بين نزلاء السرداب بعد مغادرة اسعد له
بدقائق .

— صباح آخر !!

همهم بولص بضيق ، وتلمس باصابعه مفتاح المذياع الترانزستور ،
في الحين الذي تمطى فيه حنّا ، وتشاءب بنفس طويل .

— كم هي الساعة الآن ؟

لكن احدا من السامعين لم يجب على تساؤله .

— اسعد خرج قبل قليل .

قال بولص بلهجة اخبارية ، لا تخلو من احساس بالعطف ، وتقلبت
زينب في مكانها .

— يوم خير ان شاء الله !

وامتدت يدها الى جسد ابنتها .

— فائزة !

—

— فائزة !

— همم !!

اجابت الاخرى بضيق من بين شفتيها المطبقتين ، واقلبت على

قفاهما ، مما اضطر الام الى اعادة الثوب بعدما انحسر عن فخذي ابنتها .
- كفاهك نوما !!

قالت مؤنبة ، وازافت محدثة نفسها بصوت يعلو على الهمس :
- هذه البنت تنام كبقرة !

بينما نهض بولص من مكانه ، شاقا طريقه الى الركن القصي ،
ناحية الباب ، بخطوات مرنة ، خفيفة ، على الرغم من تقدمه في السن ،
فتساءلت مارسيل بصمت عن السبب الذي من اجله لم يزود مالك البناية
سرداب بنايته بدورة مياه على الاقل .

يقع مدخل السرداب عند ناصية السلم المؤدي الى الدور الثاني .
درجات اسمنتية ، يربو عددها على العشر ، تنتهي بفسحة صغيرة
مربعة ، ذات بوابة حديدية ، صدئة ، تفضي بالداخل عبرها الى ردهة
واحدة السقف ، مستطيلة ، تمتد بامتداد مساحة ارض البناية .

ذلك هو « المخبأ السرداب » ، عشرون مترا طولا ، واقل من نصفها
عرضا ، بينما لا يكاد يزيد ارتفاع السقف على المترين .

وبطبيعة الحال كان بإمكان المتواجدين في السرداب ان يجهموا
بكمية من الهواء اكثر ، وكذا عن الضوء ، لو ان مالك البناية زود
سردابها بأكثر من نافذة . بيد انه على ما يبدو لم يضع في اعتباره
حالات الحرب ، فاكتفى بأن فتح في جدار السرداب نافذة صغيرة
واحدة ، توازي بقاعدتها ارض الشارع ، بعدما زودها بمشبك
حديدى متين .

كذلك كان بإمكان هؤلاء المتواجدين ان يتحركوا داخل السرداب
بحرية اكثر ، لو ان ذلك المالك لم يتخذ من سردابه مخزنا دائما لخليط
من البضائع (ادوات صحية خاصة ببناء وصيانة الحمامات) والتي يتعاطى
بيعها في دكانة يمتلكها ضمن احدى بناياته في حي عين الرمانة ،
حيث يسكن هو .

لهذا السبب ترى السرداب وقد ازدحم بصناديق خشبية مختلفة
الاحجام ، ترتفع حتى تلامس السقف ، عدا مساحة صغيرة تقع تحت

النافذة ، تتصل بممر ضيق متعرج - يمرّ من بين الصناديق - يؤدي في نهايته الى البوابة •

ولان المساحة التي لا تشغلها الصناديق ضيقة صار لزاما على الجميع ان يتماسوا - سواء في النوم او الجلوس - مما اضطر الام « زينب » للتفكير بأمر ابتها فائزة •

« هي شابة صغيرة رغاء • حنّا ايضا شاب • وضع البنزين قرب النار •• »

اما عن مجرى افكارها تجاه اسعد :

« هو بعينين متلصقتين ، ووضع الشاة قرب الذئب •• » فكان ان هداها تفكيرها الى حشر جسد ابتها فيما بينها وبين الصناديق •

- ستنامين هنا !

- المكان ضيق !!

- واسع •

- الصناديق تحزّ خاصرتي !!

- اخربي !!

- ••••

وعلى الرغم من كل تلك الاحتياطات فأن عيني اسعد بالذات كثيرا ما تتلصصان ، قصد التطلع الى اجزاء مكشوفة من جسد فائزة ، فالاخيرة كثيرا ما تضطر خلال ساعات النهار الى الاضطجاع او النوم ، بسبب من التعب او الملل •

« محنة وتنتهي ! »

ذاك ما تصبّر به زينب نفسها • لكن ايام المحنة طالت ، وامتدت ، وصبر زينب بدأ ينفد •

هي لا تدري الى من توجه اهتمامها ، الى الصغير ياسر ابن السنين ، والذي لا يني يعول ما دام مستيقظا ، أم انها تضع في ذهنها ضرورة مراقبة تصرفات ابتها الطائشة ، التي لا تتورع عن تبادل الاتسامات المغرية مع حنّا من جهة ، ولا تبدي حرصا - ولو قليلا - في الاحتشام ازاء مراقبة اسعد لها من جهة اخرى •

يضاف الى كل هذا تفكيرها رقلقها المتواصل حول كيفية توفير الماء والطعام لها ولولديها ، علاوة على فزعها المقيم من احتمال نفاذ احد هذه الصواريخ المنهمة حولهم ، من النافذة الصغيرة للسرداب الى حيث يحتمون ، فتكون النهاية •

« وابراهيم •• »

تردد في داخلها ييأس ، وغصة الحزن تطبق على حنجرتها •
« لا يدري ! •• ولا يسأل !! »

لكنها - مع نفسها ايضا - سرعان ما تجد لزوجها العذر •

٧

عمر زينب يتجاوز الخامسة والثلاثين ، لكن مهام البيت غير المحدودة ، مع الحمل والولادة ، وتنشئة ولديها ، وكذا مسؤولية تربية فائزة وتوجيهها ومراقبتها نتيجة لغياب ابراهيم - الذي يكاد يكون دائما - بسبب طبيعة عمله كسائق شاحنة لنقل الخضار والفواكه ما بين لبنان والكويت •

هذه العوامل مجتمعة ملأت شعر رأسها بالشيب ، وخفرت وجهها بالتجاعيد •

— الا يمكن لجسدك هذا ان يمتلىء قليلا ؟!

تساؤل مندهش لا يخلو من سخرية غير حاكمة ، طالما همس به ابراهيم في اذنها وهو يتحسس جسدها اثناء الليالي القليلة التي قاسمها فيها فراشها •

— السمنة لا تأتي الا مع راحة البال •

فكان يتسم ازاء اجابتها الحزينة ، ويضيف باعتداد ابوي حنون :

— انظري الى ابتك فائزة !

— هي خاوية الرأس !

يضحك بسعادة ، ويحتضنها •

— غدا يأتي الينا ابن حلال يطلب الزواج منها •

يقول « الينا » وينسى بانثا لا فراه سوى ايام معدودة في العام •

« ترى اين هو الآن ؟ !.. وفي اية ارض ؟ ! »

ابراهيم - قياسا بها - يعرف الكثير عن الحياة ، وله قدرة كبيرة
- نسبة اليها - في فهم الكثير من القضايا المستعصية على فهمها ،
السياسية منها بوجه خاص .

- هم يهدفون الى ترحيلنا عن لبنان .
قال لها ذات ليلة ، مشيرا الى قصف مخيمات اللاجئين بالطائرات
على اثر ازمة داخلية .

- من هم الذين يهدفون الى ترحيلنا عن لبنان ؟!
سؤال كبير ألحَّ عليها في حينها ، كان ذلك قبل سنوات ، وتذكر
بانه بدأ يجيبها بأجابة لم تستطع اقناعها بشكل كامل .
فالطائرات التي هاجمت مخيمات اللاجئين بضراوة غير عادية - في
تلك المرة بالذات - لم تكن طائرات اسرائيلية .
فتداعت على لسانها قناعتها :

- اليس المفروض بتلك الطائرات ان تلقي قنابلها على
الاسرائيليين ؟!

-

حيرته تجسدت في صمته لثوان . لكنه برعان ما وجد متنفسا لها :
- لانهم يخافون منا اكثر من خوفهم من اسرائيل .
هل تقتنع ؟!

- من هم الذين يخافون منا ؟!

-

- .. ان كنت تعني اللبنانيين : بولص وحنّا ومارسيل وجورج ،
وسواهم ، فنحن نعيش معهم .. بينهم ، بسلام ، منذ ما يقرب من
الثلاثين سنة ؟!

وقبل ان تدع له فرصة الاجابة على جملة تساؤلاتها ، رددت
بانفعال رافض :

- ... ولماذا يخافون منا ؟!

الضيق يتجسّد على وجهه — هذه المرة — بدلا من الحيرة ، وضع
عينيه في عينيها .

— انت لا تدعين لي فرصة توضيح اجابتي !!

—

ولما لم ترد عليه بشيء مخافة اغضابه اكثر ، اطلق زفرة حادة
من صدره .

— انا لا اتكلم عن اللبنانيين عامة ، وانما اعني اولئك الذين
يسكون بمقدرات البلد ...

ثم سحب لصدره نفسا عميقا ، عاد واطلقه زفرة اخرى .
— .. هم يخافون منّا ..

وقرب حاجبيه بمحاولة منه لتجميع افكاره .

— .. نحن « الفلسطينيين » عامة ، ومن ضمننا سكان المخيمات ،
لان وجود المقاومة اقترن بوجودنا .

ساعتها لم تطلب زينب من ابراهيم تفسيراً لآخر ما قاله ، وفضّلت
الاحتفاظ لنفسها بسؤالها المعضّب :

— واذا نجحوا بترحيلنا عن لبنان .. أين نذهب !!

كانت في السابعة من عمرها عندما لجأت بصحبة اهلها الى لبنان ،
ليتخذوا من احد الاكواخ الخشبية في منطقة المسلخ سكنا لهم .

ذكرياتها — التي تستطيع ان تسلسلها تسلسلا منطقيا — تبدأ من
المسلخ ، اما عمّا قبل ذلك فذكرياتها كافة لا تعدو كونها تتفا من صور
موغلة في البعد ، متناثرة ، لا يربط بين اجزائها رابط واضح .

قرميد سقف البيت الذي يأخذ باللمعان بعد توقف المطر ، وظهور
الشمس . رغبتها الرعناء بالركض في المطر . قدمها الموحلتان .

—

— كنت اخاف عليك من المرض بسبب ثيابك الرطبة ، فأخرج اليك

لاعود بك الى داخل البيت . لكنك كنت غنيمة مثل المرحوم ابيك .
كنت تغرسين قدميك الحافيتين في الوحل ، وتتشبثن بكل ما يقع

تحت يديك ...

ذاك ما قالت له امها قبل وفاتها باشهر قليلة • وتتذكر زينب انها
سألت زوجها في حينها :
— لماذا تصرّ امي هذه الايام بالذات على تذكر الكثير من تفاصيل
حياتها في فلسطين !?

فاجابها ابراهيم بصوت يشوبه الحزن :
— السن تقدمت بها ، فازداد حنينها الى مسقط رأسها :

تتذكر ايضا كلبهم الكبير « عنتر »

—

— كنت تصرين على الركوب فوق ظهره ، متشبهة بالمرحوم ابيك ،
عندما يركب فرسه « الغبرة »
وهناك هوايتها الغريبة ، متمثلة في حبها لجمع اكبر عدد ممكن
من حبات البرتقال الصغيرة الخضراء المتساقطة عن اشجار البرتقال قبل
نضوج ثمره •
—

— ما كنت تكتفين بما تجميعينه من تحت الاشجار ، بل اني كثيرا ما
رأيت يديك الصغيرتين تمتدان — بتلصص حذر — الى الاغصان ، لتقطعا
ثمار البرتقال وهي خضراء لم تنضج بعد •
— وهل كنت آكلها ؟

— لا • كنت تكتفين بجمع اكبر عدد منها • باللعب بها •

نافذة خشبية ذات لون يقرب من السواد ، بمشبك حديدي
صدى •

—

— هي نافذة بيتنا ، ويا لأصرارك الطفولي على التشبث بقضبانها ،
وصعودها ، على الرغم من الرضوض التي اصبت بها ذات مرة ، بسبب
سقوطك من اعلاها •

— لا اذكر !!

— كنت طفلة ..

لكن الذكري التي بقيت متشبثة بذهن زينب — بقوة غريبة —
هي الفجر .

— استيقظي !!

ففتحت عينيها الطفلتين على عويل من امها مفجوع ، وتذكر بأنها
اعولت بدورها فزعا قبل ادراكها السبب .

ما كانت بأمرها الحاجة لان تعيد تمثيل الواقعة ..

— ليلة شؤم ما بعده شؤم تلك الليلة التي دخل فيها عمك البيت :
« البقية في حياتك ! » وما صدقت — منذ الوهلة الاولى — بأن المرحوم
مات مقتولا برصاص اليهود ..

ترفع امها طرف كمها الى عينيها .

— مات مع رجال آخرين من شباب القرية ، ظلّوا يدافعون عند
حدود منازلنا حتى آخر رصاصة لديهم .

— استيقظي ! ابوك مات !

فأعولت بأعلى بعدما ازداد فزعها ازاء الانهيار المفاجيء لامها ، ومن
غير فهم واضح لما يعنيه الموت .

— اسرعي ! علينا ان نلحق بالماشين !

ذلك الفجر كان شبيها بأي فجر آخر . الغبش . شجرات البرتقال .
النافذة . الرياح الباردة ، والتراب المشبع بالندى .
لكن الذي انحفر في ذهنها ، ذلك اللفظ والمويل اللذان كانا
يصدران عن الناس .

القرية باجمعها . نساء . اطفال . كهول . تتنادى لتهاجر الى جهة
مجهولة .

— اسرعوا اكثر !! .. اليهود في طريقهم الآن لمهاجمة القرية من
طرفها الشمالي !!

وتذكر كلهم « عتتر »

— لازمنا طوال السفر حتى وصولنا حدود لبنان •

— وبعد ذلك ؟!

— فقدنا آثاره •• لا ادري كيف !

— لعله وجد من يؤويه !

— هل تظنين ؟!

— •••••

بعد اشهر من اقامتهم في لبنان — المسلخ — ادركت زينب ما

يعنيه الموت •

— متى يعود ابي يا أمي ؟!

كانت في السادسة من عمرها ، وعرفت بأن الموت هو فقدان ابدى،

لا امل يرجى منه ، بعدما واجهت — مع نفسها — صعوبة كبيرة في

الاقتناع •

— ابوك مات ، ولن يعود •

وما استطاع عمها — الذي كان شابا يافعا في حينها — على الرغم

من حذبه وحنوه عليها ان يعوضها الاب ، والحضن الحامي عندما كانت

تتعرض لغضب امها ، والشارب الكث ، الذي طالما طاب لها ان تمر

باصابعها عليه ، وهي جالسة في ذلك الحجر ، الصلب ، الوسيع ، اما عن

ولعها الخاص بتعلقها في كتفيه ••

وما استطاعت المسلخ •• بازقتها المتربة ، الضيقة ، المتغلغلة بين

اكواخ الصفيح والخشب — والتي كانوا قد وصلوها بعد اشهر من

الترحال — ان تعوضها ذكريات البيت • البرتقال • النافذة • المطر •

عتتر •

بعد حوالي السنة من اقامتهم في المسلخ بدأ كل من امها وعمها

يعاملانها كما لو كانت امرأة راشدة •

كانت في السابعة عندما عهدت اليها امها بالكثير من اعمال البيت •

— ما دمت قد حرمت فرصة التعليم ، فيجب ان تكوني ربّة بيت

على الاقل .

ذاك ما كانت تردده امها في اذنها .

« ربة بيت » ، وما تغيرت الحال بعد زواجها من ابراهيم ، وانتقالها
للاقامة في بيته بالشيّاح .

— انت لا تغفلين امرا من امور البيت .

ويضحك ابراهيم بسعادة . كانا في الاسابيع الاولى لزواجهما ، وما
كانت الشاحنة لتأخذه بعد ، ويستطرد :

— .. حتى تلك الامور التي لا تخطر ببالى .. « اليوم غسيل ،
اخلع ثيابك الداخلية ! »

« ربة بيت » اذن : امها لعبت دورها بمهارة ، فيجىء الفرح
باعتراز واثق .

ظروفهم المعاشية حاليا ، الى جانب ندرة فرص التعليم ، تسببت في
حرمان ابنتها فائزة من مواصلة التعليم بعد انهاءها الدراسة الابتدائية .
« التعليم ليس بالمجان يا امرأة ! » .

كل هذا لا مجال لمعالجته الآن ما دامت صفة « لاجئة » منصبة على
ابنتها كما هي عليها ، لكن الذي يحزّ في نفسها ان فائزة — ابنة السادسة
عشرة — بأستعداد غير كاف ، بل معدوم لان تصوير ربة بيت ناجحة .
« لماذا البنت ليست لأمها !? »

ويحزّ في نفسها اكثر — وهي المسؤولة دون زوجها عن تربية ابنتها
وتوجيهها — ان تكون علاقة الابنة بأبيها اشبه بأية علاقة اخرى ، قد
تقوم بين الاخيرة ، وبين اي قريب يتردد على زيارتهم ليوم واحد في
الشهر ، مع فارق الانتظار والشوق ، وتوقع تلقي بعض الهدايا الصغيرة
التي يجلبها لها معه عند عودته ، في الوقت الذي بقيت فيه علاقة زينب
بأبيها — رغم موته وهي طفلة — قوية ، حادة ، مؤثرة ، وراسخة ،
كمثل رسوخ علاقتها بأمها .

* في تصريح للسيد محافظ البقاع ، قال :

ما زالت الحالة هادئة في جميع مناطق البقاع ، عدا حادث عرضي في شتورة ، حيث جرى تبادل اطلاق نار بين فئتين من المسلحين عند منتصف الليلة الماضية ، لكن رجال الدرك سارعوا الى اماكن الاشتباكات ، وبدأوا بمطاردة المتسببين في اطلاق النار .

كذلك فان رجال الامن في طريقهم لازالة الحواجز التي وضعها بعض الاهالي المزودين بالسلاح على طريق بيروت - دمشق .

* وفي تصريح آخر للسيد محافظ الشمال ، أفاد :

سمعت بعض الانفجارات ليلة البارحة ، الى جانب تبادل اطلاق رصاص .

الحال في طرابلس وضواحيها هادئة والحياة اقرب الى ان تكون طبيعية .

* اما السيد محافظ الجنوب فقد أفاد :

على الرغم من الانفجارات التي حدثت في اماكن متفرقة من صور وسيدا فان الحالة هادئة ، والحياة شبه طبيعية . وللمزيد من العلم . . يسعى رجال الامن لازالة الحواجز من الطرقات ، وابعاد الاهلين عنها .

* نداء الى المواطنين كافة :

الرجاء افساح المجال امام رجال المطافيء ، والاسعاف ، للقيام
بواجباتهم الانسانية النبيلة ، وعدم التعرض لهم باطلاق النار عليهم .

* وصلتنا شكاوي كثيرة من المواطنين الموجودين في مناطق
الاشتباكات بصدد حاجتهم الى الخبز ، ونحن اذ ننصحهم بالصبر ،
نصارحهم القول ، بأن رجال شركة التموين عاجزون عن الوصول اليهم
بسبب حدة الاشتباكات .

ونعدهم باننا سنقوم بتوزيع الطحين على الافران ، وكذا باقي
المواد الغذائية حال عودة الاوضاع الى مجراها الطبيعي في مناطقهم .

الكيس الورقي بامتلائه غير الطبيعي بالمعلبات يشدّ كنفسي اسعد
باتجاه الارض .

الخدر يسري في اصابع يديه المسكتين - قويا - بزجاجتي
الوسكي .

« ثقيلتان !! »

واسعد لن يسقطهما مهما كلفه الامر ، خصوصا بعدما حملهما طيلة
هذه المسافة .

بعد قليل - لدى وصوله السرداب - يستطيع ان يضطجع على
ظهره ، ويستريح الى ما لا نهاية .
« والتعب !! »

قدماه تتعثران جراء الاجهاد . ما الذي دفعه لحمل كل هذه
الكمية الكبيرة من المعلبات ؟..
« هل يتخلص من بعض حملة ؟! »

ثم عاد وعدل عن فكرته ، من شيمه - لو ترك له الخيار - الا
يرضى بالتسليم او الانهزام امام العقبات والمشاكل التي تصادفه ، مهما
كان حجمها وضراوتها ، الا اذا غلب على امره ، كما هي حاله مع
زوجته .

توقف عن المشي • لم يبق عليه الا ان يجتاز الطريق ، لعلمهم يرويه
الان ، من نافذة السرداب •

الصق ظهره بالجدار ، وسحب ل صدره نفسا عميقا • اخشى ما يحشاه
ان يتسبب له الاجهاد بنوبة قلبية جديدة •
يتنفس الصعداء • اطلاقات مدفع رشاش تتردد في مكان ما •
القنّاصة • عليه ان يترث قليلا • من العار ان يصاب ، او يموت وقد
شارف الانتهاء من مهمته •

ازيز صاروخ • فيتسارع خفقان قلبه • الازيز يتخفى البناية الى
اخرى • دوي هائل •

خفقان قلبه يعاود طبيعته • حتى متى سيظل مبناهم في منأى عن
الاصابة بصاروخ طائش ؟!

صعد عينيه في المبنى القديم ذي الطوابق الثلاثة •
رعدة عنيفة تجتاح جسده • زجاجتا الوسكي تصدران رينا
متسارعا بسبب تماسهما المرتعش •
ثغرة واسعة تظالعه في جدار المبنى ، عند الطرف الايمن للطابق
الثاني حيث غرفة نومه •

« صاروخ ! »

لو كان أسعد في الفراش ، لاصبح في خبر كان !! ••
ما الذي ستفعله جميلة عندما ترى الخراب حالا بشقتها ؟!
لعلها لن تتوانى عن تأنيبه ، وتحيله مسؤولية كل الذي حدث •
— كم مرة قلت لك : دغنا نستأجر شقة قريبة من سكن اهلي في
منطقة الجامعة العربية ؟!

ثم تواجهه صارخة في وجهه :

— لو انك اطعني !! •• لو انك سمعت كلامي مرة واحدة في
حياتك ! انظر ! ما الذي استطيع ان افعله بهذا الاثاث المحطم ؟ واين
سنام منذ •••

لكنه يبعد شبح وجه زوجته المشوّه بالغضب والحقد من امام
مخيلته ، ليسر بعينه على اماكن اخرى من المبنى •

الجدران ليست مصابة حسب ، بل مثقبة - عبر كل شبر منها -
بثقوب مختلفة الاحجام ، كمثل منخل كبير اخرق . بقايا الزجاج تتعلق
بزوايا اطر النوافذ . الطابق الثالث - حيث يسكن كل من حنا
وابراهيم - يكاد يكون مهتما تماما .

حنا - اثناء خروجه امس - رأى ما حلّ بمنزله ، فما سبب ترده
عن اخبار امه ؟! . ام ان كل هذا الخراب ..

صوت محرك سيارة . فتحين من اسعد التفاتة سريعة ، لا ارادية ،
ناحية طرف الشارع . سيارة جيب تقترب .

وبحركة لا ارادية اخرى ، قوية ، ومن دون تفكير ، او تصميم
مسبقين ينفلت راكضا كما لم يركض من قبل .

مركز الجذب - عفويا - يتمثل بالسرداب . الامان الذي اعتاده
طيلة الايام الماضية .

دوي المحرك يكبر . طلقات مدفع رشاش . صغير حاد لرصاصة
تصدم اسفلت الشارع ، فيما بين قدميه .

« لماذا ؟! »

تساءل في داخله بصوت باك .

« انا ما .. »

لكن فوهة مدخل البناية احتضته . الدرجات العشر لسلم السرداب
تتحول - باجمعها - الى درجة واحدة . حنا في مواجهته بدلا من
الباب الحديدي .

- اتبه !!

صرخ حنا محذرا .

كانت زينب من بين الذين راقبوا اسعد من نافذة السرداب وهو في
طريق عودته .

- جيله ثقيل !!

قالت باحساس مشارك ، فاعقبها بولص هاتفا بلهجة مشوبة بفرحة
الاكتشاف :

— ما تلك الزجاجات المتدلية من يديه ؟!
حنّا امعن نظره قبل ان يردد بصوت خفيض لكنه مسموع من
الاخرين :

— تصرف احمق !
فصدرت عن مارسيل نحنة مبهمة ، وهي تنظّم ناحية اسعد ، الذي
كان — وقتها — مستندا بظهره على الجدار المقابل عبر الشارع ، عندما بدأ
فيه دوي السيارة الجيب يقترب من المكان ، مما دفع حنّا للاسراع باتجاه
بوابة السرداب ، بهدف مدّ يد المساعدة لأسعد اذا اقتضى الامر •

القفزة الجنونية التي قام بها اسعد — نتيجة ركضه السريع ، وتخطيه
الطائر لدرجات السلم المفضي الى السرداب — لم تمهل حنّا — المأخوذ
دهشة — فرصة الابتعاد عن طريقه •
— انتبه !!

صرخ محذرا ، لكن اسعد صدمه بقوة ، والقاء جانبا ، ليستقط —
بدوره — سقطة قوية على وجهه ، مما ادى الى تحطيم الزجاجتين المعلقتين
في اصابع يديه تحت فخذه •

لعل رائحة الوسكي المتشبع بشبابه هي العامل الرئيسي في سرعة
عودته الى وعيه •
— آه آه !!

رفّ بجفنيه ، ثم فتح عينيه • وجوه غائمة • كثيرة • تحيط به من
كل جانب •
— اين انا ؟!

تساءل باندهاش مفزوع ، فافلت بولص ضحكة قصيرة ذات جرس
حزين مرّ •
— في السرداب •

— السرداب !!
— بالسلامة ان شاء الله !

رددت زينب ، واعمل اسعد فكره لثوان • الكيس • الشارع • سيارة
الجيب • الرصاص • الرصاص •
« أُصبت !! »

انبعثت في ذهنه ، فأنبعث الالم — على اثرها — حارقا في فخذه •
« أُصبت !! »

مارسيل ما زالت منحنية على فخذه • اصابعها تعمل في شدّ خرق من
القماش •
« هكذا .. اذن !! »

يبحث عن رباطة جأشه •
— كم رصاصة ؟!

تساءل بصوت لاهث ، جهد ان يجعله طبيعيا ، ولما لم يأت رد سريع
عاد الى السؤال :

— كم رصاصة اصابتني ؟!
فوصله الرد — أسيفا — من بولص :
— زجاجات الوسكي هي التي اصيبت !
—

الدهشة لم تزايل وجه اسعد ، وكذا الفزع ، فتطوعت مارسيل
بالايضاح ، وهي تنتقل — بعد انتهائها من تضييد فخذه — لمعالجة جبهته
المصابة بكدمة بنفسجية اللون كبيرة •

— انت سقطت على وجهك • الزجاجات ...
ولم تستطع منع نفسها عن الابتسام •
— .. ثار الزجاج هو الذي جرح رجلك •

تصرفات كثيرة - لا تستطيع مارسيل الا ان تصنفها ضمن الاعمال الشاذة - كانت غالبا ما تصدر عن الرجال ، سواء اولئك الذين كان لها نصيب الاحتكاك المباشر بهم ، بدءا من زوجها جورج - الذي لولا بعض صرامة من ابنهما حنّا لما نجحت باقتناعه في دخول المستشفى قبل اسبوعين لمعالجة ما يعانيه من روماتيزم مزمن - و انتهاء بلويس الذي شـاركهما مأساة لا تعلم حتى اليوم كيف وفقت للنفاذ بجلدها منها ، او الرجال الذين عرفتهم عن كثب ، واخرهم جارها اسعد هذا •

في السنوات الاولى لخبرتها الحياتية كانت الحيرة والدهشة ، او الحزن على ما يصل اليه من تعاسة مريرة هي اساليها الوحيدة لمجابهة ما يصدر عن هؤلاء الرجال ، لكن تقدمها في السن ساعدها كثيرا على التحكم بمشاعرها ، مع مواجهة مجريات الامور باعصاب باردة ، ومحاولة ايجاد تبرير ما معين - وان بقي مرفوضا من العقل السليم - لكل الذي تتعرض له من جانبهم •

عند سفح الجبل في عاليه تفتحت انوثتها ، على اثر طفولة وصبا غير مسؤولين ، وفي كنف اب يعمل في الزراعة ، وام تتولى شؤون المنزل • كان عالمها محدودا بين البيت والمزرعة طيلة أيام الاسبوع ، عدا يوم الاحد ، حيث تتاح لها فرصة مرافقة ابويها الى الكنيسة •

الذي تعرفه ان لها أخوين، اصغرهما يكبرها بثنتي عشرة سنة .
- لم أرهما !!
فترد الام على سؤال مارسيل التي كانت في السادسة من عمرها
ايامها :

- اخواك هاجرا الى اميركا مذ كنت في المهد .
- متى يعودان ؟!

-

لكن آيتا من الاخوين لم يعد لسنوات عديدة ، بعدد سنوات عمر
ابنها حنا .

ولو ان احدهما كان موجودا أبان مواجهتهما لموضوع زواجهما .
لوقف بشكل او بآخر الى جانبها .

« خوخة » ذاك هو الاسم الذي اشتهرت به لدى الناس الذين
يعرفونها ، في الايام التي سبقت زواجهما من جورج . انوثتها المتفجرة .
صدرها العارم . عيناها الواسعتان يريقهما العفوي النهم . بشرتهما
النضرة .

كانت - اجمالا - شبه بشرة خوخ ناضجة تماما ، تنتظر من يسارع
لاقتطافها .

ومن بين جميع الذين كانوا يمسون لها بكلمات غزل رقيقة اثناء
دخولها او خروجها من الكنيسة يوم الاحد اختارت لنفسها شابا رأت فيه
تجسيدا حيا للرجل الذي تحلم به حبيبا وزوجا .
لقاؤها المنفرد الاول بلويس كان في اصيل يوم اثنين عند الطرف
الابعد لمزرعة أبيها .

- انت حلوة !
ذاك ما تجرأ لويس - بعد طول تردد - على التفوه به مضطربا ،
ثم صمت ، فاندثشت .

وهي تسير في اثر ايها وامها يجروا على التفوه بالكثير ، حتى اذا ما

جمعتها وياه عزلة لذينة عثقل لسانه •

في لقاءهما الثاني - بعدما قررت مع نفسها ان تأخذ زمام المبادرة -
سألته :

- ما بك ؟!

فتلثم وهو يجيئها :

- ل... لا شيء •

ابتسمت باغراء واثق •

- اقترب مني اذن !!

ولما تردد حائرا قبل ان يجلس لصقها همهمت بصوت محموم :

- لامسني !!

....

لكن مارسيل - ابنة السبعة عشر عاما - استطاعت كبح جماح
رغباتها الغريزية حرصا على عفتها • وتوقفت - مع لويس - عند حدود
المداعبات والقبل ، على أمل الاحتفاظ بما هو اكثر لذة الى ما بعد اقترانها
به ، بيد ان الموقف الشاذ الذي اتخذه ابوها - بصدد امر زواجها -
نسف لها كل طموحاتها واحلامها •

وشتاء ذلك العام على الابواب تقدم جورج من أبيها طالبا يدها ،
فوافق على الطلب مباشرة •

علاقة القرابة ، الى جانب الوظيفة الحكومية التي يشغلها جورج -
امين صندوق في احدى دوائر بيروت الحكومية - يضاف الى ذلك رغبة
الاب بالاسراع في تزويج ابنته تخلصا من مسؤولية اعاليتها ، الى جانب
تربيته ، ومراقبة تصرفاتها • تلك هي محبذات قبول الاب لجورج ، ودافعه
للسارعة في الاعلان عن موافقته •

اليأس والخذلان اللذان حلاّ بلويس لم يجدا صدى مائلا في
نفس مارسيل •

— سأطلع ابي على حقيقة الامر !
فأكنفى لويس بالصمت ، ما كانت مارسيل تشك بقدرتها على
اقناع ايها .
— سأكلمه الليلة .
—
— سأقول له :

— انا احب لويس .
لكن سحنة ايها التي سرعان ما تغيرت صدمتها .
— ماذا تقولين ؟!
صرخ في وجهها ، والغضب العارم يشد عضلات وجهه ، كانوا
بسييلهم لتناول طعام العشاء .
الام كنت انفاسها مفروعة ، بينما امتدت يد ايها الضخمة الى
شعرها ، لتطبق عليه بقوة .
— ماذا قلت يا عاهرة ؟!
— انا . . .
لم يدعها تتم ، واستطرد صارخا :
— ما اخطأت في حدسي عندما قلت : علينا ان نزوجها باسرع وقت ،
قبل ان يصدر عنها ما يسيء لسمعتنا !!
— لا تكن قاسيا معها . .
قالت الام من بين دموعها .
— . . هي طفلة طائشة !!
— اخرسي !!
فخرست الام ، واتم الاب بحقد متفجر :
— انتِ السبب !!

وكان ان قضت مارسيل ليلتها تلك باكية بحرقة ، وآلام الضرب
القاسي تنبعث من جميع اجزاء جسدها ، وفي ذهنها سؤال يعذبها اكثر :

— لماذا يرضى لي ابي ان اضاع رجلا لا أحبه ، ويمنعني عن
آخر احبه ؟!

ليلة زواجها من جورج عاملها الاخير برقة وصبر بادى الامر ،
سرعان ما تحول الى الحاح لجوج ازاء رفضها البات لرغباته .
ولانها لم تعر توسلاته اذنا صاغية فقد اضطر — والفجر يوشك على
الانبلاج — الى اغتصابها .

ضحى اليوم التالي اعتذر لها بصوت حنون :

— كنت مجبرا . هو الزواج ، وبالنسبة اليك لك الحق ، فأنت ما
زلت صغيرة ، وجاهلة بشئ هذه الامور ، لكنني واثق بأنك ستعتادين ..
وابتسم مستطردا :

— .. كذلك ستجدين متعة .

—

ولعل صحتها هو الذي اوحى اليه بأنها توافقه على رأيه موافقة
ضمنيه ، فمد يده الى صدرها .
— انت شهية !

رفضها المستمر ، والمستमित في الوقت نفسه لتلبية رغباته ، اضافة
الى فارق السن — كان جورج في الخامسة والثلاثين — زادا من حدة
اشتهائه لها .

— ستعتادين !

ثم يشل حركتها بساعديه القويين .

— ومتجدين متعة !

لكن مارسيل اعتادت على كرهه ، ووجدت متعة في بحثها الدائب عن
وسيلة للاتصال بلويس ، الذي انقطعت اخباره عنها بعد مغادرتها — منذ
اليوم التالي لزواجها — بصحبة جورج الى بيروت ..
فرن الشباك ، حيث سكناه قرب مقر وظيفته .

بعد انصرام الشتاء وافتتاح فرصتها الاولى للاجتماع بلويس في ثاني
زيارة تقوم بها لبيت ابيها •
مكانهما السابق • الطرف البعيد للمزرعة ضمهما في اول لقاء لهما ،
بعد زواج مارسيل •
- انت تعيشين في بيروت !
قال لويس باضطراب ، وصمت دقيقة بكاملها ، قبل ان يضيف باللهجة
ذاتها :

- متى تعودين اليها ؟!
كان - كما هي عادته - مترددا ، يضاف الى ذلك انه صار يخشاها
اكثر بعدما اصبحت امرأة متزوجة ، على الرغم من ان اغتصاب جورج
المستمر لها زاد في بريق عينيها ، واضفى على اتساع حدقتها عمقا مثيرا •
- وجورج .. كيف حاله ؟
فالتفتت اليه ، وفي عينيها تحدّ غاضب ، من اجل ان تضع حدّا
لتساؤلاته الحمقاء •
- تعال !!
هتفت بنفاد صبر باد ، وازافت :
- ... وقتنا ضيق !

تلك ايام ما عادت لمارسيل علاقة بها ، بل هي - في الغالب - تسمى
جاهدة لتجاوز تذكرها عند اختلاؤها بنفسها ، فالمغامرة التي اوغلت فيها
حتى الثمالة تسببت لها بمأساة لم تحسب لها حسابا عاقلا ، وامتدت بظلمها
القائم على سنوات عمرها كافة •

فالفكرة : « - لا بد ان نعيش معا ! » ما كانت لتختمر في ذهن
لويس لولا ما بدر عن مارسيل من الحاح منذ اللحظة الاولى لانتشائها
الجنسي العارم معه •

- لن يضمني انا وجورج فراش واحد !!
وما كان لويس - نتيجة حداثة سنه في ذلك الحين - بمقل
راجح كاف •

— ماذا نفعل؟! —

سؤاله الحائر هذا ، قادها الى اكتشاف :

— نهرب •

لويس لم يرفض الفكرة ، لكن حيرته كادت تقضي على حيويته ،
وما دار في ذهن مارسيل :

— ماذا بعد هربنا؟! —

بعد هربهما باسبوع واحد ، واستقرارهما في كوخ عند سفح جبل
حريصا ، استطاع ابولويس ان يعثر على مكانهما •
— تعال يا « ابن الكلب »!

صرخ مخاطبا ابنه حال تخطيه باب الكوخ • الدماء غاضت من وجه
لويس • كان قد عاد لتوه — متعبا — من المزرعة الكبيرة ، حيث
التحق منذ ايام كعامل زراعي ميّال •
— تظن بأنني لن اعثر عليك!!

عاود الاب صراخه ، في الحين الذي فكّس فيه لويس رأسه ، ولم
يفه بكلمة •

— .. ما الهدف من وراء هربك مع هذه العاهرة؟! —

وما استطاعت مارسيل — وهي ضمن موقف متأزم لم يخطر لها
على بال — ان تردّ دفاعا او تبريرا •
— .. دنّست شرفنا!! —

واجه الاب ابنه قبل ان ينهال عليه بالصفع .. لويس المأخوذ ،
ومارسيل المضيّعة •

— .. امامي « يا ابن الكلب !! »

ثم خرجا • لويس في المقدمة ، لا يكاد ينصر ما امامه ، والاب
الماشي في اثره لم يكلّف نفسه عناء الالتفات ناحية مارسيل ، صامّا اذنيه
ازاء عويلها المفجوع •

« ما العمل الآن؟! »

ولأنها لم تجد ايّسا اجابة ، اوغلت في العويل اكثر فأكثر . بعد
ساعة من رحيلهما سمعت تقرا خفيفا على باب الكوخ .
« مَن ؟ ! »

كانت بحاجة نفسيّة للاغراق في البكاء ، عندما دخل مالك المزرعة
الكبيرة .

— منذ دقائق عرفت — من العمال رفاق لويس — بشكلك .
وجهه بطابع من الحزن مشارك ، وانتظر برهة ريثما جففت دموعها ،
واستوعبت دهشتها .

— انا اهتمّ بعمالي وبعائلاتهم اكثر من اهتمامي بالمزرعة .
كان الودّ ينبجس في عينيه .
— من العمال فهمت ...
وواجهها في عينيهما .
— .. لويس ليس زوجك .
الدم يحرق خديها . عيناها تهربان .
— .. وفهمت من ثورة ذلك الرجل الشرس والد لويس بانك متزوجة
من رجل آخر .

وانتظر ريثما استوعبت دهشتها الجديدة .
— باستطاعتي ان اساعدك .
عيناها تعودان الى وجهه . الحنو .
— هل ترغبين بالعودة الى بيت زوجك ؟
رعدة عنيفة تجتاح كيانها . الفزع .
— هل ترغبين بالعودة الى بيت ابيك ؟
الرعدة اشدّ من سابقتها .
— لديك قريب اوصلك اليه ؟
نظرتها تخيم لشوان .
— لا .

قالت كلمتها الاولى مرتعشة ، حائرة ، ومهموسة في الوقت ذاته .
— اظن ..

وفتقر فمه عن ابتسامة هي خليط من الحنان والفرح •
- .. لا مانع لديك - في مثل هذه الحالة - من الالتحاق بعمل
شريف ، يقيك التشرد !
فتوميء برأسها موافقة •

- عملك الجديد - من حيث التسمية - خادمة ، لكنك في الحقيقة
ستكونين - بالنسبة لي - ابنة •
كفّ الناعمة تمر على شعر رأسها بحنان ، والعرفان - على الرغم
من مأساتها - يتجسد في عينيها •
- اظنك لا تعرفين بأني اسكن بيروت !
-

- في بيتي لن ينالك سوء ...
كفّ تضغط كنفها برقة أبوية •
- .. ولن يطالك الخطر •

عند منتصف ليلتها الاولى في البيت الكبير طُرق باب غرفتها
الصغيرة •

- من ؟!
كانت ما تزال غارقة في همومها • ابوها • امها • لويس • جورج •
- انا •
ودخل المالك متسللاً بخفة •
- جئت كي اطمئن عليك •
وما استطاعت توسلاتها • دموعها • رفضها • ولا حتى مقاومتها
الجسدية عندما جدّ الجدّ ، ان تمنعه عنها مرة ، وثانية •

... اصيل اليوم التالي استوقفها احد الخدم - وهي في طريقها
لاداء واحد من الاعمال المنزلية المكلفة بها - ليسألها :

- انت مارسيل ؟

- نعم .

فالتقى الخادم معلومته اثناء ابتعاده عنها :

- على الباب رجل .. يطلبك .

- يطلبني انا ؟!

الخادم لم يرد على سؤالها المدهش . كان قد ابتعد . والحيرة
تتنامى في داخلها .

« من ياترى ؟! »

ثم تتزايد الحيرة .

« وكيف عرف مكاني ؟! »

الخوف . التردد . ومن فرجة صغيرة في الباب الكبير أطلت .

« جورج !! »

لم تملكها المفاجأة من مجيئه ، بقدر ما تملكها الاحساس بالضياع
حال رؤيتها له .

تداعت في ذهنها البارحة . دفاعها غير المجدي عن جسدها ، ويقينها
بأن باب غرفتها سيطرق هذه الليلة أيضا .

« - انا لن أوذيكَ !! »

يهمهم لاهثا • ثقل جسده • ويداه القويتان تعملان على اخضاعها •

التذكر يبعث الغثيان حارقا في جوفها ، الى جانب رعشة لذيدة ،
ساخنة ، وكريهة ، مرفوضة ، في اللحظة ذاتها •

« لو بتّ ليلتي هنا لما اضطر لاستعمال قوته ! »

تضمن النظر من الفرجة الصغيرة • جورج لا يعرف بوجودها
وراء الباب •

وجهه بانتظار متوقع ، وطيبة قلقة ، ليس كما صورّه لها خيالها :
الغضب • الحقد • الانتقام •

« لن ابيت هنا ! »

انفجر القرار في داخلها • الغثيان والرغبة المحرمة ينحسران •
طيبته القلقة ، وينفتح الباب ، لتندفع خارجا •

- جورج !!

هتفت ، واعولت منتحبة بمرارة ، فاجأتها ، واراحتها في الوقت
نفسه •

- خذني من هنا !!

- ابو لويس بعد غثوره على ولده خبرني عن مكانك في حريصا ••
كانا في طريقهما الى البيت ، واستطرد جورج بصوت هادئ ، حزين ،
مشوب بالعطف :

- •• وفي حريصا خبرني احد العمال ان مالك المزرعة الحقك
خادمة في بيته ••

للحظة خاطفة احسّست مارسيل بأنه لو نظر في عينيها لعرف البارحة •
- •• ولاني اعرف شوارع عين الرمانة ، جئت على العنوان مباشرة •
صوته يتلوّن بوازع المشاركة :
- في البدء •••

وصمت لثوان ، لم تجرؤ مارسيل خلالها على النظر اليه ، واتم هو
بمهمة خافتة ، اشبه بحديثه مع نفسه :
- لا .. لا بد لنا من العثور على منزل آخر في حي آخر غير فرن
الشيكاك .

- خفق قلب مارسيل بشدة . كانت - لتوها - قد ادركت جسامه
فعلتها . الفضيحة . الحي . الناس .
ومن زاوية عينها تطلعت ناحية جورج ، بسحابة منها لمعرفة مدى
الآلام النفسية التي سببتها له .

في اول ليلة لهما - بعد العودة - قال لها جورج مؤنبا من غير حقد :
- لو عرفت منك يوم خطبتك انك على علاقة حب مع لويس
لاشذرت من ابيك بأي شكل من الاشكال ، وانسجت من حياتك !
-

ومنذ الليلة الاولى لعودتهما عادت مارسيل تضطر جورج لاغتصابها
عنوة ، كلما عن له ان ينام معها ، لكن سؤالا قاهرا كان يعذبها :
« من منّا سينسى قبل الثاني ؟ ! »

وبقيت لشهور عديدة لا تجرؤ على مواجهة زوجها في عينيه ، اما
هو فقد بقي لسنوات طويلة - وعلى الاخص لدى تصاعد خلاف ما
بينهما - يذكرها :

- ما الذي كان سيؤول اليه مصيرك لو لم احتكم انا الى العقل
واجيء بطلبك في عين الرمانة ؟ !

وكان دورها : ان تتزود بالحكمة والصبر ، فأبوها الذي أجبرها
على الزواج من جورج قطع كل علاقة له بها ، واقسم اغلظ الايمان الا
يرى وجهها ما دام حيا ، منذ ان عرف بخبر هربها مع لويس .

ثم جاء الحمل والولادة ، فتوجهت اهتماماتها اجمعها للعناية بحنّا ،
ورأت فيه - مع نموه السريع ضمن الجو الصحي الموفّر له - تجسيدا
حيّا لنشأة حرمت منها هي .

- ايتاك ان يعرف الصبي بأمر ماضيك !!

حذّرها جورج ذات مساء ، بعدما رآها جالسة الى ولدها -
ابن الرابعة عشرة - تحدّثه عن ايام صباها في عاليه •
- لن افعل بالطبع •

اجابت بصوت مُحبط ، وفتر الحماس في داخلها ، فكرة اخبار حنّا
عن مغامرتها المشؤومة تلك - والتي تسعى جاهدة لاسقاطها من ذاكرتها -
نم تكن قد خطرت لها على بال •

لكن حنّا - على الرغم من سعي مارسيل لابعاده عن معرفة مأساتها -
اختلى بها في احدى ليالي شتاء ما قبل ثلاث سنوات ، ليقول لها :
- حدسي كان في محله !
وجهه بابتسامة سعيدة واسعة •
- .. منذ وعيت وانا اشكّ بوجود سرّ كبير في حياتكما ، انتِ
وابسي !

تطلعت اليه مبهورة •

- .. اليوم - عن طريق الصدفة - عرفت من احد زملاء الدراسة
من اهالي عاليه بقصة خوخة ولويس •

الدماء تحرق وجهها • العرق يتفصد في جبهتها •

- ... ما كان يعرف بأنك امي •

ثم مدّ كفيّه ليحتوي يدها الثلّجة •

- .. الان استطيع الجزم بأن لي أمّا اعتزّ بشجاعتهما •

ومارسيل تهب لانفعالات شتى متضاربة •

- ماذا تقول !؟

فضغط على كفّها •

- اقول : تصرفك ذاك لم يكن جريمة لا تغتفر ، كما اوحوا لك •

دموع العرفان تنبجس في موقياها ، وهي تتطلع في وجه ابنها والهة •

- انا .. انا ..

لكنه قاطعها بصوته الواثق :

- كنت تدافعين باسلوبك الساذج عن وجودك كأنسانة من

لحم ودم وعاطفة .

لم تقه بأيّما كلمة ، وعلى صدر ابنها الرجل انتحبت - للمرة الاولى ،
منذ ما يربو على العشرين سنة - بمرارة يصاحبها احساس بالضيم والقهر .
بكأؤها كلما خلت مع نفسها - فيما سبق ذلك - كان مصحوبا
بأحاساس المذنب مرتكب الخطيئة .

جورج لم يعرف بأمر مصارحتهما ، كذلك فان امين الصندوق الذي
احيل على المعاش قبل اربع سنوات لم يكن لديه الوقت الكافي كي
يلحظ ما طرأ على شخصية زوجته من تغير ، نتيجة لانشغاله بمرضه المزمن
من جهة ، اضافة الى انه كان - قبل النوبة الحادة للروماتيزم - يقضي جل
وقته بصحبة ثلاثة من زملائه المتقاعدين ، عند ناصية دكان الحلاق ، يلعبون
الطاولة من جهة اخرى .

ولم يعرف بأن ابنهما حنّا - الى جانب محاولته الجادة لاعادة ثقة
امه بنفسها - بدأ يشركها معه في جلسات خاصّة ، تضمّ رفاقا له من
الجنسين .

- رفاق لي في العمل سيزوروننا عصر هذا اليوم .
همس لها حنّا في اذنها ذات مرة ، بعيدا عن مسمع ابيه ، فلحقت
به حتى غرفته .

- انت تحيّرني يا حنا !! .. من اين لك برفاق في العمل وانت
لا تزال طالبا ؟!

يتسم بتفهم .

- هم رفاق العمل السياسي .

وبطبيعة الحال ما كانت مارسيل تفهم كنه ما يدور في جلساتهم من
احاديث ، بيد انها وجدت سعادتها الحقيقية في القيام على خدمتهم .
- سأعدّ لكم شايّا آخر !

وتوفير الراحة لهم ، لكن راحتها وسعادتها سرعان ما تزعزعتا وآلنا
الى شقاء وقلق شديدين داما لمدة اسبوع ، هو الاسبوع الذي قضاه

حنا في الاعتقال ، على اثر اضرابات طلبة الجامعة •

— كدت أجنّ خوفا عليك !!

قالت باكية وهي تأخذه بين ذراعيها ، بعد عودته من المعتقل •

— هكذا !!

ثم يتسّم ، ليربت على كتفها ، ويستطرد بصوته المتفائل أبدا :

— المفروض بنا الا نخاف من الذين يخافون منا .. اليس كذلك ؟!

ولانها لم تفهم كما ينبغي ، اضاف :

— لولا خوفهم منا ما لجأوا الى اعتقالنا •

في المعتقل يظلّ حنا عرضة للتحقيق ، او السجن على اكثر تقدير •

اما وهذه الحرب في عنف اشتعالها ، فهل هناك — وهو المعرض

المخرج من السرداب مرة ثانية .. ماء .. طعام — سوى الموت ؟!

لو كان جورج موجودا ، لا استطاع — على الرغم من مرضه — ان يشد

ازرها قليلا •

* ايها المواطنون الكرام :

يسرنا ان نعلن على حضراتكم هذا النبأ ، الذي وصلنا الان .
 بفضل الرجال الاخيار الساهرين على امن بلدنا المضياف لبنان ،
 بدىء - منذ الساعات الاولى لصباح اليوم - بوضع قرار وقف اطلاق
 النار موضع التنفيذ ، في مناطق متعددة من بيروت .
 هذا . . ولا يزال رجال الامن يبدلون جهودا مكثفة للفصل -
 بشكل نهائي - بين الاخوة المتنازعين .

كذلك تجدر الاشارة الى ان حدة اطلاق النار بدأت تخف تدريجيا
 من المناطق الرئيسية للاشتباكات ، ونعني بها : الشياح . عين الرمانة ،
 مما يشير الى قرب انفراج الازمة انفراجا نهائيا .

بالنسبة للمواطنين الذين ضاقوا من بقائهم في الملاجيء : نعددهم
 بوصول رجال الاسعاف ، والاطفاء ، والتموين اليهم حال توقف ما تبقى
 من الاشتباكات في مناطقهم .

على الجميع ان يتحلوا بالصبر والامل ، فلبنان الذي واجه صعوبات
 جسيمة ، عبر العصور كافة ، سيخرج من محنته هذه سليما معافى .

- يبدو ان الوضع آخذ بالانفراج !
 قال بولص كلماته ممضوغة ، بسبب امتلاء فيه بكمية من حبوب

الفاصولياء المعلقة .

— حقا ؟!

ثم تقل اسعد بصره من وجه بولص الى علة الفاصولياء بضيق لم يوفق لاختفائه ، قبل ان يرفع يده الى رأسه متحسسا كدماته ، ليستطرد باللهجة الحاققة ذاتها :

— بعد ماذا ؟

كانت الساعة تشارف الساعة صباحا . مدّ بولص يده الى مفتاح المذياع ، فتلاشى صوت فيروز .
— اتدري ؟!

تساءل ، واطلق ضحكة قصيرة، قبل ان يتمّ معاكسا :

— انت السبب في ما جرى لك .

— هكذا ؟!

اطلقها اسعد ، وهو يستشهد حنّا بعينه .

— ... اذن من الذي دفع ثمن وجبتكم الدسة هذه ؟!

حنّا اكتفى من الرد بابتسامة مشجعة ، لم تلق قبولا ملائما لدى اسعد .

— .. هذا جزائي لاني فكّرت فيكم اكثر مما فكّرت في نفسي واولادي ...
وصمت للحظة .

— .. الذين لا اعرف مصيرهم مع تلك ال ..

كان بصدد ان ينعت زوجته « بالعجلة » لكن خوفه ان يصلها نعته بشكل او بآخر منعه عن الاستطراد .

— انت قمت بالواجب .

قالت زينب .

— واكثر .

اضافت مارسيل ، فتدخل بولص بلهجة لا تخلو من سخرية ودودة :

— على الرغم من ضياع الوسكي .

— « شكر الله سعيكم ! »

ردّ اسعد على الجميع بسخرية واضحة ، وكان بصدد الاستطراد :
- الكلام شيء ، ومغادرة السرداب في مثل ظرف خروجي شيء آخر !
عندما هتف حنا :
- اسمعوا !!

فخيّم صمت مفاجيء على السرداب ، وارهف الجميع آذانهم .

الصمت الذي خيّم على السرداب امتدّ ليشمل منطقة الشبّاح
أجمعها .

دهشة متفائلة تأخذ طريقها الى وجه زينب ، لتجسّد في صوتها :
- الانفجارات توقفت !!

- لعلهم بدأوا بتنفيذ قرار وقف اطلاق النار في كل المناطق !
قال اسعد ، فاجابه حنا باقتناع زلزل تفاؤله :

- لا اظن .

- لماذا لا تظن ؟

تساءل اسعد حائقا ، وبلهجة مشوبة بالهزاء ، لكن حنا لم يردّ
بالطريقة ذاتها .

- لان الرجعية ..

قال بهدوء مشفوع بابتسامة متفهمة ، واكمل :

- .. كما يجب ان تعرف .. لن تستسلم بالسهولة التي تتصورها !
- اعرف هذا .

اجاب اسعد بحق بيّن ، قبل ان يتمّ :

- .. ولا حاجة بك لتعليمي الف باء السياسة !

تذكر حنا بأن اسعد لا يمكن ان يكون موضوعيا في حوارهِ ، الا
في حالات نادرة جدا ، وحالتهم هذه ليست كذلك ، فردّ على حنق اسعد
بهزة موافقة من رأسه ، وانتقل بعينه الى حيث كانت فائزة تحاول اثارة
اهتمامه بلفقات تفتقر الى الخبرة النسوية ، حتى اذا ما رأى اسعد ذلك -
وهو الراصد المتيقظ لكل ما يصدر عن فائزة - وجهه حديثه الى بولص
بصوت اكثر من مسموع :

- اتصدّق يا بولص بأنّي تعرضت أربع مرات لموت محقق اثناء

خروجي اليوم •
وحدج فائزة بنظرة واعدة •
— ... مرة قبل وصولي حانوت البقالة الواقع في الشارع الثالث
الموازي لشارعنا •
ثم رفع صوته :
— ... وهو بعيد جدا كما تعلم •
ولان فائزة لم تلتفت اليه •
« اللعينة .. تتجاهلني متعمدة !! »
قال لنفسه ، واكمل مخاطبا بولص دون ان يمتلكه اليأس من جذب
اهتمامها اليه :
— المرة الثانية كانت داخل الحانوت ال • •
لكن يد بولص امتدت الى مفتاح المذياع •
* • • ياطيرة طيري لوادينا • •
وعقّب على تصرفه قائلا برقة يخالطها رجاء :
— نسمع اخبار البلد !
فاتسعت حدقتا اسعد ، وتباعدت زاويتا فمه بابتسامة صفراء ، موافقة •
* * *
* نداء الى المواطنين كافة :
الرجاء افساح المجال امام رجال الاسعاف والاطفاء للقيام بواجبهم
الانساني النبيل ، وعدم التعرض لهم بفتح النار على سياراتهم • •
* * *
رائحة الخطر تشمّ من الصوت المنفعل للمذيع •
« لا وقف اطلاق نار ولا بطيخ !! »
قال اسعد ، وافلت ضحكة مبتورة ، لم تجد تجاوبها اللازم لدى
حنا ، فالتفت الى بولص •
— .. انما هي استراحة المحارب • • كما تسميها في لغة الصحافة •

بعد الهدوء النسبي الذي ساد منطقة الشيتاح بدأ البعض من المتواجدين في المخابيء بمغادرة اماكنهم بحثا عن طعام او ماء ، فصرت ترى - بين الحين والحين - امرأة ، او رجلا يحث الخطو مسرعا الى جانب الجدران ، ليعود بعد قليل ، محملا بكيس ورقي .

تلك الحركة التي اخذت تتزايد مع مرور الوقت بعثت شيئا من العباة في الشوارع المحيطة ، على الرغم من الانقراض والجثث المنتنة ، وسرت بعدواها الى بولص قبل غيره من الباقين في السرداب .

— سأخرج !

قال ، ولما لم يجد تشجيعا من احد اقترب من اسعد هامسا في اذنه :

— هل تستطيع ان تحدد لي مكان البقالة بالضبط ؟!

وغمز بعينه ، ففهم اسعد على التو ما يهدف اليه محدثه .

الوسكي ؟

التمعت عينا بولص ، وهز رأسه موافقا .

بناء على الوصف المفصل الذي ادلى به اسعد استطاع بولص الوصول الى حانوت البقالة دون عناء ، حيث فوجيء هناك بوجود جمهرة من الناس تزدحم على باب الحانوت .

وعندما عجز عن ان يدس هيكله الهزيل بين المتجمهرين ، اضطر الى
الاكتفاء بالتوجه لسؤال احد الواقفين في مؤخرة الحشد •

— ماذا يحدث ؟!

تساءل وهو يمس كتف الرجل من وراء ، قاصدا لفت انتباهه ،
فاستدار الاخر •

— بولص ! •• سلامات !

فاجأه الرجل بمعرفته له ، واضطر بولص الى الرد بسرعة غير
متحمسة :

— سلامات !

من اجل ان يعود الى سؤاله الاول ، لكن ارشاك مصلح الاحذية،
عاد وفاجأه ثانية :

— هل اصيب احد من سكان بنايتكم ؟

— لا •

اجاب بولص بضيق •

— نحن ايضا لم يصب احد منا •

ردد ارشاك بفرح يكاد يكون طفوليا ، وهو ينقل ثقل جسده من
ساق الى اخرى ، ماداً رقبته الى أمام ، كي يرى اكثر ، فاعتنم بولص
انفرصة ، ووجه سؤاله :

— ما الذي يحدث هنا ؟!

— صاحب الحانوت يرفض البيع للناس •

اجاب ارشاك بتقريرية خالية من الانفعال •

« صاحب الحانوت ! »

واحسن بولص — على التو — بخية مريرة ، واستطرد محدثا

نفسه بحزن :

« لماذا جاء الى حانوته الآن •• بالذات ؟! »

كان يؤمل ان يعود باربع زجاجات من الوسكي الاجنبي الفاخر ،

دونما حاجة للدفع ، تماما مثلما كانت الحال مع اسعد •

— والحل ؟!

تساءل بولص من غير ان يخرج من جوّه النفسي ، فأجابه ارشداً
بعفوية :

— هو ثائر .. لان بعض المجهولين نهبوا بضائع كثيرة من حانوته
اثناء القصف .

فينقلت من فم بولص سؤال عفوي :

— وهل سيعود القصف ؟!

—

لهجة التمني — غير الواعية — التي شابت سؤال بولص دفعت الآخر
الى التطلع في وجهه بدهشة غاضبة ، مما اوحى لبولص بضرورة
المسارعة في الابتعاد من امام مصلح الاحذية .

* الرجاء من الجميع ملازمة منازلهم ، وعدم مغادرتها لاي سبب
كان ، وعلى الاخص اولئك الموجودين في مناطق الاشتباكات ، لان
النوع الذي شهد انفراجا جزئيا صباح اليوم ، سرعان ما عاد الى التوتّر
بدءا من الآن .

على المواطنين التحلي بالصبر ريثما تتوصل الاطراف المعنية الى
اتفاق نهائي ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان هذا الاتفاق المنتظر بات
وشيكا .

.. كذلك تجدر الاشارة هنا الى ان منطقة الشياح فوجئت — منذ
الساعة الواحدة ظهرا — بقصف كثيف ، مركز ، بمختلف انواع الاسلحة ،
وعلى حين غرة ، اثناء انتشار الناس في الطرقات . مما ادى الى سقوط
عدد جديد من الضحايا الابرياء ، فكان ان اقفرت الشوارع ، وعادت
منطقة الشياح لتصير — خلال ثوان معدودات — منطقة اشباح .

حوالي الساعة الواحدة والنصف ، وفي الوقت الذي كان فيه اسعد
يفيد ترتيب ضمادات جروح فخذه ، وفمه لا يكفّ عن اطلاق الشتائم على

هيئة مهمات خافتة ، صدر عن بولص هتاف مفاجيء :

— هو ابراهيم على ما اظن !!

وابتعد خطوتين عن النافذة ، كي يفسح المجال لجسد زينب ، التي كانت قد انتفضت من مجلسها لتقفز الى جوار النافذة .

— ابراهيم لا غيره !!

رددت قبل ان يعلو صوتها بصيحة فرح غامر :

— ابراهيم !!

لكن صيحتها ضاعت وسط دوي انفجارات جديدة ، بينما تساءل بولص وهو يطلّ من وراء كتفها :

— والمرأة التي معه .. من هي ؟!

على الجانب المقابل للرصيف — في المكان الذي وقف فيه اسعد عند
الفجر — وقف ابراهيم ملصقا ظهره بالجدار، والى جانبه وقفت جميلة •
— اللعنة !!

ردد اسعد بصوت خفيض، وهو يمعن النظر في زوجته من وراء
زجاج النافذة، و اضاف بدهشة حاقدة :
— كيف جاءت ؟!

ثم اضطر للتنحي جانبا امام اصرار بولص للحلول محله •
— دعني اكلمهما !

قال ، وبدأ يعالج قفل النافذة بهمة وعجالة واضحتين ، ولما لم
يستجب القفل لاصابع يديه الهرمتين ، تطوَّع حنا لمساعدته •

بعدهما تمَّ لهما فتح مصراعي النافذة ، حشر بولص وجهه داخل
قضبانها ، وطفق ينتظر فسحة الوقت الممتدة بين انفجار وآخر ، ليصرخ :
— ابراهيم !

الآخر — على ما يبدو — سمع الهاتف ، فركّز نظراته على النافذة،
واضطر بولص للانتظار برهة اطول من الوقت ريثما تكف الانفجارات
المتعالية ثانية •

— انحنوا قدر الامكان !
صاح بأعلى صوته ، وانتظر •

- .. واركضوا بأسرع ما ..
 افلت اسعد ضحكة ساخرة .
 – نصائحك كادت تودي بي !
 – « اششئ » !
 قال بولص بلهجة آمرة ، وعاد الى الصراخ :
 – .. وبخط متعرج !
 بعدها اطلق زفرة ارتياح ، ثم التفت الى اسعد ، وباللهجة الجادة
 الأمرة ذاتها استطرد :
 – تلك امور تعلمناها في الجيش .
 لم يخف اسعد تضايقه ، واجاب :
 – وانا تعلمت أكثر .. ايام كنت في المقاومة .
 فندت عن فائزة – للمرة الاولى – جملة متسائلة تشوبها رائحة
 التآمر ، وسط جرأتها ، وفرحتها بعودة ايها :
 – ولماذا تركت المقاومة ؟!
 فالتفت اسعد منبهتها .
 – المقاومة !!
 ردد باندهاش رافض ، وحاجباه يرتفعان الى مداهما ، بينما
 تدخلت زينب ، فزجرت ابنتها قائلة :
 – « اخربي يا بنت !! »

 المجتمعون وراء قضبان النافذة لم يفاجأوا برؤية ابراهيم وهو
 يعاثر جملة ، مستعينا بيديه ، على الرغم من عدم سماعهم له .
 – هو يرشدها الى كيفية اجتياز الشارع .
 قالت مارسيل ، فاعترض بولص :
 – انا سبق وارشدتهما معا عن كيفية العبور ، لكنني اظنه ينصحها
 بالتريث اكثر !
 – لو انها ...
 وكفّ اسعد عن الاتمام . اهتمامه الى جانب اهتمام الجميع – عدا

حنا الذي كان قد ذهب ليلازم عند باب السرداب منذ برهة - انشد الى ابراهيم ، وهو يركض محنيّ الجسم ، في محاولة منه لاجتياز الشارع •

مدخل السرداب لم يتمخض ، لا عن ابراهيم ، ولا عن حنا ، بيد ان ما دار بينهما من حوار سريع ••

- سلامات !

- سلامات !

دلّ على وصول ابراهيم سالما ، فتهلل وجه زينب ، وسبقها ابتها فائزة ناحية المدخل •

على اثر عبور ابراهيم تعرّضت مساحة الشارع المواجهة للسرداب لاطلاق نار مركّز •

- ستموت جميلة لا محالة !!

غمغم اسعد بصوت مهزوم ، ففقتت مارسيل على كلامه مصدّقة :

- هم يترصدون لكل جسم متحرك !

- موقعنا بالنسبة لهم هدف مكشوف !

قال اسعد ، وتلاه بولص موضّحا :

- انهيار البناية الكبيرة الواقعة عند طرف الشارع تسبب في انكشافنا لهم اكثر !

لكن ذهن اسعد على ما يبدو أوغل اكثر :

- أقسم بالله •• هذه المرأة مجنونة !! •• والاّ فما الذي جاء

بها في مثل هذا الظرف بالذات ؟! •• انا ••

ثم صمت على اثر لكمة من بولص •

- اسمع !

وانصبّ اهتمام الجميع على المرأة الواقعة - لصق الجدار - في

الجانب الآخر •

- انتظري قليلا !

صاح ابراهيم من عند مدخل السرداب • عينا جميلة تنشد ان

مفروعتين باتجاه بوابة البناية ، حيث يحتمي كل من حنا و ابراهيم .

— لعلهم ...

قالت مارسيل ، مشيرة برأسها ناحية حي عين الرمانة ، وامتت :

— .. لم يعرفوا بوجود شخص آخر يعني اجتياز الشارع !

كانت حدة اطلاق النار قد خفّت الى حد ما ، وانتقل هدف

الرصاص باتجاه مكان ابعد قليلا ، ومن المدخل تعالى صوت ابراهيم بصيحة ثانية ، مخاطبا جميلة :

— الآن !! .. بسرعة !!

« حدث هذا !! »

قال اسعد لنفسه ييأس ، وهو يفرز اسنان فكه الاعلى في شفته

السفلى .

ثقل حركة جميلة . سمتها . سنّها . ذلك كله تسبب في عدم قدرتها

على اجتياز الشارع ركضا .

كانت قد تعثرت عند منتصف المسافة ، فتداعت ، لتلقى ثقل جسدها

بباطن كفيها ، في الحين الذي انطلق فيه وابل متلاحق من الرصاص .

— نامي على الارض !!

فكرة مفاجئة تداعت في ذهن اسعد ، وتجسدت صرخة هستيرية

عالية .

— ... تظاهري بالموت

عينها الجاحظتان تدوران في محجريهما ، لتنتقلا من بوابة البناية

الى النافذة . جذعها لا يزال يستند الى ساقها وذراعيها .

— .. نامي على الارض !

واحد اسعد كما لو انها معركته الخاصة .

— .. بسرعة !!

الرصاص يصطدم باسفلت الشارع ، فيطيش ، مصدرا أزيزا متلاحقا

— .. تظاهري بال ..

لكن الرجفة العنيفة التي اجتاحت جسد جميلة ألجمت فم اسعد لثوان .

— الغيبة !!

صرخ بصوت يشارف العويل ، واكمل مقهورا :

— اصابت نفسها !!

ومن خلل الدموع شاهد كوعيا وهما ينخيان ببطء • صدرها
يلامس الارض قبل بقية اجزاء جسدها •

الجميع يزدهمون وراء النافذة • حنّا — وحده — بقي ملازما
مكانه محتيا بمدخل البناية ، عندما بدأت حدة اطلاق النار تخف
تدريجيا •

— هي ما زالت تتنفس !

هتفت زينب بانفعال فرح •

— وتنظر اليها !

عقبت فائزة •

— اصابتها ليست خطيرة على ما يبدو •

قال ابراهيم واستطرد :

— لو انها لم تتعثر !

فالتفت اليه اسعد من غير ان يخفف دموع عينيه •

— انت السبب !!

قال وهو يضبط عضلات فكّيه بقوة ، وكأنه يمنع نفسه عن

مهاجمة ابراهيم •

— انا ؟!

تساءل الاخر بدهشة حزينة رافضة ، لم تمنع اسعد عن التصريح

بحقد اوضح هذه المرة :

— ومن جاء بها الى هنا سواك ؟!

—

— هي تحرك رأسها باتجاهنا !

صاحت فائزة ، فتدخلت مارسيل موجهة كلامها لكل من

اسعد وابراهيم :

— دعونا نسمع ما تقوله جميلة !

عيون الجميع ، وآذانهم تنشد — منذ دقائق — الى الجسد المسجى
فبي الشارع .

— هي تبكي !!

رددت فائزة بحزن، فسرت فسي جسم اسعد رعدة خفيفة .
وجه جميلة المعطر بالتراب يميل جانبا باتجاههم . الهواء يبعث بشعرها
الخشن ، فتبدو اشبه بجثة مضى عليها زمن ليس بالبعيد .
— اسمعوا !

غمغمت مارسيل ، ومن الطريق وصلهم صوت جميلة ، ضعيفا ،
مرتعشا ، فزعا :

— ماذا افعل الآن ؟!

على الاثر سرت موجة فرح عارمة في نفوس المتزاحمين عند النافذة .
— اصابتها خفيفة !

قال بولص ، وكفه تضغط على كتف اسعد بحنو بالغ ،
واستطرد بيقينية :

— .. والا لما استطاعت

غير ان صيحة من حنا — جاءت من الطرف الاخر للسرداب —
وضعت حداً لتحليلات بولص .

— ازحني اليّ !

فاتنفض اسعد لدى سماعه حنا ، وادار رأسه صارخا ، محذرا ،
بأعلى صوته :

— لا يتدخل احد بيني وبين زوجتي !!

قبل ان يلتفت ناحية الشارع .. جميلة ، متمما بالارتفاع ذاته :

— لا تسمعي كلامه !! .. تظاهري بالموت !!

لان حنّا لا يهدف الى الاصطدام بأسعد ، سواء بطريق مباشر او غير مباشر ، فقد آثر الانصياع لصرخته :

— لا يتدخل احد بيني وبين زوجتي !!

على الرغم من تعاطفه الشديد وحزنه على تلك المرأة المصابة التي بقيت — بأمر زوجها — ملقاة على وجهها في منتصف الشارع على بعد امتار منه ، بيد ان كل ذلك لم يمنعه عن التوجه اليها بسؤال :

— تتألمين ؟!

— —

الحيرة التي ارتسمت حزينه في عينيها سرعان ما سرت بعدواها اليه .

— اصابتك خطيرة ؟!

— —

حيرته تتضاعف .

— اين أصبت ؟!

فتحت فاهها كي ترد ، ثم عادت واطبقته .

— هل انت عاجزة عن الكلام ؟!

— لا .

اجابت بوهن ، مما طمأنه ، وشجعه على القول :

— الا تستطيعين تحديد مكان اصابتك !?

فجاء صوتها بعد تردد قصير :

— بلى .

—

وكان دور حنّا — هذه المرة — ان يلوذ بالصمت . هو لا يجد —

بينه وبين نفسه — تبريراً مقنعاً لصمتها ازاء اصابتها ، لعل غرابة تصرفات

زوجها انسحبت عليها .

التدني الوقتي لحدة اطلاق النار وانتقال هدف الرصاص الى

مكان آخر دفعا حنا للتفكير بالقاء نظرة اشمل على الشارع قبل

عودته الى الداخل .

خطا نصف خطوة — لصق زاوية الجدار — خارج المدخل ، واطل

برأسه .

الطريق موحشة تمتد . المباني المصابة . الاخرى نصف المهتمة .

واخيرا اكاداس جدران المبنى الكبير الذي كان قائماً عند طرف الشارع .

« كم من الاصابات الصاروخية المباشرة !? »

وعندما انتقل بعينه الى الابد — حيث تنكشف المسافات من

فوق اكاداس الجدران — خيّل اليه انه رأى شبح انسان في نافذة من

نوافذ بناية عالية بعيدة، فسارع الى الاحتساء بالجدار ، وكلمة « قنّاص »

تتداعى في ذهنه .

« يا مصدر النيران !! »

في المرة التالية اطلّ بنصف رأسه ، ودقق النظر .

« عين الرمانة !! »

واشعة الشمس تسقط على البناية البعيدة . زجاج النوافذ المغلقة

يشعّ ، وكذا الشعر الاشقر للرجل الكامن في النافذة المفتوحة .

دقق النظر اكثر . بندقية . . او مدفع رشاش . . لا بدري

بالضبط ، يسندها الرجل على قاعدة النافذة .

حديد البندقية . . الرشاش — اثناء حركة الرجل بها — يلتصق ،

يشعّ ، ولم يستطع حنّا التزام الصمت لمدة اطول .
— ابراهيم !!

صاح ، دون ان يرفع عينيه عن الرجل .

— هل حدثت مضاعفات لجميلة ؟!

تساءل ابراهيم بلهفة حزينة ، لدى وصوله الى جانب حنّا .

— انظر

قال حنا مشيرا باصبعه تجاه المبنى البعيد .

— ماذا ؟!

العينان الحادّتان لابراهيم ، الذي اعتاد على قيادة الشاحنات

الكبيرة ليلا ما بين الكويت وبيروت ، سرعان ما التقطتا جسد الرجل .

— هذا هو سبب بلائنا اذن !!

ثم انتقل بعينه الى حيث ترقد جميلة ، فانبجست في ذهنه فكرة ،
واجه حنّا على اثرها :

— ما رأيك لو ..

وابتسم ... حنا — ايضا — كان قد واجهه قائلا في اللحظة ذاتها :

— ما رأيك لو

عندما بدأ كل من ابراهيم وحنّا يناقشان فكرتهما الهادفة الى

محاولة وضع حد للقنّاص الذي يتربص بهم ، كان اسعد — ساعتها —

يراقب — من وراء النافذة — زوجته الراقدة غير بعيد عنه ، في

الخارج .

الجميع — نزولا عند رغبته الشخصية — ابتعدوا عن النافذة ، ومن

ضمنهم بولص ، على الرغم من ان الاخير لم يستطع منع نفسه عن

ان يهمس في اذن اسعد راجيا ، وهو يستدير مبتعدا :

— لا خطر من زحفها الينا !!

لكن اسعد — وهو يشعر للمرة الاولى باهمية دوره — آثر ان

يتقيها في مكانها حتى حلول الظلام .

في الليل تستطيع جميلة التحرك بسهولة ، بل انه يستطيع الخروج اليها بنفسه لمساعدتها ، دون ان يكونا هدفين مباشرين للرصاص .
الاخرون - حسب رأيه - ينظرون الى الامور عبر منظار ضيق ،
ينحصر ضمن معالجتها (الامور) في لحظتها الراهنة .
اما هو - وهنا يكمن الفرق - فينظر الى الامور بمنظار ابعد ،
متحسبا لكافة الظروف والملابسات .

هم يحزنهم ان تظل جميلة ملقاة باصابتها في عرض الشارع . لكنهم
لن يحزنوا - بشكل حقيقي - مثله لو انها اصيبت برشقة رصاص لدى
صدور اية حركة عنها ، وعلى الاخص الآن ، في مثل ضوء النهار
الساطع هذا .

القتلة يتربصون لكل جسم متحرك دون تمييز ، ليس الحل
الامثل - لما هم فيه - ان يخادع القتلة .. ما دامت الحرب خدعة !!

وهو يراقبها عن قرب - بانتظار حلول الظلام - وفق الى اكتشاف
الكثير من اسباب نفوره منها .
شعرها الاكتر الذي لا لون له . انفها الكبير . فكها البارزان ،
الضخمان . وجهها المستطيل من غير اتساق . رقبتها القصيرة المكتنزة ،
واخيرا : جسدها كله بترهله ، وعدم تناسقه . لماذا اجبره ابوه - وهو
(اسعد) في زهرة شبابه - على الزواج بها .. « ابنة عمك » دونما
التفات للمئات من الشابات الفلسطينيات القاتنات ! .. لتأخذ هذه الفتاة
فائزة مثلا ، حتى وهي تماكسه :

- لماذا تركت المقاومة ؟!

ما عاكسته هادفة الى اثارته ، الا بسبب من احساسها برجولته
الطاغية . زينب مثلا .

- « اخرسي يا بنت !! »

نتيجة احساسها بهذه الرجولة هدفت - من وراء زجرها لابنتها -
ان توقف الاخيرة عن الايغال معه اكثر .
بينما تبقى زوجته الحقاء - على بشاعتها وكبر سنهما - غير
مدركة لقيمتها ، وقوة شخصيته .

« - انت غبي كبير ! »
من اتذك من موت محقق الان ؟!
محاولتك الخرقاء في اجتياز الشارع ؟! .. ام حكمة اسعد
ببقائك متظاهرة بالموت ؟!
الحماس يتنامى في داخله . لا بد له من الاخذ بزمام امور العائلة
منذ الآن .

هذا الحدث غير المتوقع - الحرب .. اصابتها - سيكون مفتاح
تعامله معها في المستقبل .

ثم دقق النظر . وجهها المحتقن بالدم يميل الى اللون الارجواني .
منتصف الشارع . الاسفلت . شمس الساعة الثانية والنصف
ظهرا . العرق يتصبب من وجهها مختلطا بالغبار والدموع .
سيكون - بالنسبة اليها - درسا لن تنساه . ليت الوقت الممتد
الى الليل يمتد اكثر ، لكي تأخذ درسا اقصى ، واطول . واوفى فائدة .
طيلة عمره معها كانت هي المتحكمة ، المتجبرة ، الأمرة ، اما
الآن ...

واحس بحركة انسان ما خلفه ، فالتفت . مارسيل تقترب لكي تلقي
نظرة ، قبل ان تردد بلمحة فيها الكثير من التأنيب المندھش ، والادانة :
- من الجنون ان تظلّ تلك المسكينة ملقاة هناك !!
ووضعت عينيها في عينيه .
- ... ستموت هذه المرأة من جراء الشمس والفرع حتى لو لم
تكن مصابة !!

احساس اسعد بالحماس ينحصر الى الداخل ليحل محله شعور
بالذنب ، ويتمسك بوجهة نظره قائلا :
- لم يبق عن الليل كثير وقت !
الادانة تتبدى من عيني مارسيل بأشد .
- اذن .. فانت تنوي تركها في مكانها حتى الليل ؟!
وقبل ان يجد اسعد الوقت الكافي للرد تدخلت زينب متسائلة
بصوت راعش باك :

وما ادراكما بأنها ستظل حيّة الى المساء؟!
التساؤل الباكي لزئيب اشبه بصفعة مفاجئة سقطت على وجه اسعد:
الجارة الغريبة تتعاطف مع زوجته اكثر منه ، بينما يتلذذ هو
بالمراقبة !!

من يدري؟! .. لعلها - كما قالوا - ستموت من جرّاء الشمس
والفرع ، او استمرار نزف الدم !!
همهم مع نفسه بكلمات غامضة ، ثم أطلق صوته :
- جميلة

عينا جميلة تشبثان بالنافذة ، وما هدف اسعد الى الاستسلام
للاحاحم باليسر الذي يتصورونه . اي قرار بخصوص زوجته يجب ان
يصدر عنه .

- تألمين بشدّة؟!

تطبق جفنيها ثم تفتحهما .

- اصابتك خطيرة؟!

الحيرة في عينيها

- اين اصبت؟!

-

خيّل اليه انها تظالعه ببراء . يبذل جهدا كي يكبت حنقه .

- ما بك؟!

فتنفجر مارسيل غاضبة :

- ليس وقت استجواب !!

لكن اسعد يتجاهل غضب مارسيل ، ويستمر في صياحه مخاطبا
زوجته :

- بماذا تشعرين؟!

صوتها - يصله - ضعيفا ، متخاذلا :

- عطشانة !!

الفرح والحنان يتناوبان صوته :

- اصابتها ليست خطيرة !

قال مخاطبا مارسيل ، والتفت الى زينب •
— .. والا لما شعرت بالعطش وحده !
ثم عاد وحشر وجهه بين قضبان النافذة •
— هل تستطيعين الزحف ؟!
صاح ، وصوته يطفح بسعادة طاغية • البادرة القاضية بمغادرة
زوجته لمكانها صدرت عنه ، لا عن غيره •

ما ان أنهت جميلة زحفها باتجاه بوابة العمارة حتى نهضت
مستعيدة كامل حيويتها ونشاطها السابقين مما اثار استغراب اسعد .

« كأنها عجلة !! »

حدث نفسه وهو يتابع حركتها ، قبل سؤاله لها :

— اين أصبت ؟!

—

وعندما عرف من مارسيل مكان اصابتها .

— سليمة .. اصابة سطحية في لحم الاليتين .

ادرك سبب احجامها الطويل عن الرد على أسئلته .

« خجل لا مبرر له ! »

وكان الرجال الاربعة قد اجتمعوا غير بعيد عن باب السرداب بناء

على امر من جميلة .

— لن اسمح لمارسيل برؤية مكان الاصابة اذ لم تبتعدوا جميعكم !

— حتى أنا ؟!

تساءل اسعد ساخرا ، وابتعد . بعد وقت قصير وصلهم صوت

مارسيل :

— الجرح صغير .. لا خطر من حدوث نزيف .

روح الدعابة تملك اسعد . الفرح بنجاة جميلة ، ولانها زوجته دون سواه ، اذن لا مانع من استغلال المناسبة للبرهنة على رباطة جأشه من جهة ، ومحاولة ادخال السرور الى نفوس شركاء المحنة من جهة اخرى .
— يبدو ان الذين اطلقوا النار على جميلة استهدفوا اليثيا متعمدين !

قال ، وافلت ضحكة مرحة . سرعان ما اجهضت . الآخرون لم يشاركوه ضحكه ، بل ان الامر كان على العكس ، صار هدفا لنظرات استغراب شزراء من جانب ابراهيم وحنّا . روح الدعابة ينحسر مفسحا المجال امام رغبة حاقدة بالمشاكسة . وهو يعرف علاقة ابراهيم بالمقاومة ، وكذا انحياز حنا لها .

— الصدفة وحدها هي التي اتقذت حياة جميلة .

مهّد لما يدور في ذهنه ، و اضاف :

— .. لو ان طلقا ناريا جاء في رأسها .. صدرها .. بطنها ..

لماتت في التو واللحظة !

نقل نظرات ثعلبية مستفزة ما بين ابراهيم وحنّا ، ثم بدأ هجومه المركّز .

— .. انا بصفتي فلسطينيا لا اتوقع من السلطات اللبنانية ان تتولى حمايتي ، لكنني ادين المقاومة ..
وشحن صوته :

— .. ادينها لانشغالها بخوض حرب كان يجب ان توجه ضد اسرائيل ، وعدم تصديها للدفاع عني وعن عائلتي !!

قال كلماته مرصوفة ، مشوبة بالحقد ، وطلق ينتظر ردود الفعل .
حنا — بسبب من معرفته الشخصية المجربة لاسعد — اكفى كما هي عاداته من الرد بابتسامة رائية ، مجنّبا نفسه عناء خوض نقاش لا مبرر له .

ابراهيم .. وهو الذي سبق وتعرض لاهانة تبدو وكأنها متعمدة

من جانب اسعد قبل قليل ، عندما واجهه الاخير صارخا بحقد في
بدء اصابة جميلة :

— انت السبب !! انت اتيت بها !!

انبرى للرد بهدوء ظاهري يخفي من ورائه انفعالا واحتقارا
كبيرين :

— لو اخطأ شخص في مستواي التعليمي ، دون الثانوي — انا
السائق — عند تحليله للاوضاع الراهنة فلا عتب عليه ، اما ان يجيء
الخطأ من جانب انسان متعلم جدا (صحفي) وفلسطيني بالذات ،
فتأويل الامر يدخل ضمن واحد من احتمالين : اما ان يكون ذلك
المتعلم « الصحفي » حمارا ، او عميلا مدسوسا .

حدثنا اسعد تسعان .

« كيف ؟ »

يزدرد لعابه بصعوبة ظاهرة ، عبر محاولة منه لتجميع افكاره ، بغية
الرد ، لكن استطراد ابراهيم بالهدوء السابق نفسه منعه .

— .. اي مراقب نزيه للاحداث الراهنة ، سواء كان فلسطينيا او
غير فلسطيني ، يستطيع من خلال متابعته ، وسماعه الاخبار ، ان يصدر
حكما قاطعا ، لارد فيه ، مفاده : ان المقاومة لم تتسبب في اشغال
نار الحرب ، وان هذه الحرب فرضت عليها ، واجبرت غصبا عنها —
لخوضها ، دفاعا عن وجودها ، وايضا دفاعا عن وجود بعض الحمير ،
والعملاء المندسين ، الذين منا يزالون يحملون اسماء فلسطينية ،
يستفيدون من التستر بها .

العرق — غزيرا — يتصب من جبهة اسعد .

« الى هذا الحد !! »

في الحين الذي اتسعت فيه ابتسامة حثا حتى اصبحت جذلة ، وبدت
الدهشة الحائرة على وجه بولص .

— .. ثانيا — وليكن في علم السيد الصحفي — ان المقاومة لا
تعد هجوما لفئة او مجموعة ، كما قد يتبادر للذهن الحماري ، وانما

هي تتصدى لمؤامرة كبيرة تمولها القوى الامبريالية ، والرجعية هنا ، الى جانب الدعم المطلق من اسرائيل .

« ها هم يعودون لتعليم اسعد الف باء السياسة !! »

وما توقع اسعد ان يتدخل حنا مضيئا ببرود اشبه ببرود ابراهيم :
- .. ثالثا - ولزيد من المعرفة - حربهم ليست موجهة ضد المقاومة حسب ، انما المقصود منها كذلك اضعاف وتصفية القوى التقدمية اللبنانية .

فتح اسعد فاه كي يرد ، لكن استطرد ابراهيم :
- .. رابعا - ولزيد من معرفة اخرى - الجولة الحاسمة لهذه الحرب لم تبدأ بعد ، فالاسلحة المتدفقة ، المختومة بنجمة داوود ، والمرتزة الخبراء في حرب الشوارع من عرب بدو ، ورجال عصابات أجنب ٠٠٠

« اسعد ليس بدويا !! .. ولا اجنبيا !! على الرغم فهم يتعاونون عليه !! »

- .. خامسا : وقوع سكنهم في طرف منطقة الشياح ، مواجهين لعين الرمانة ، هو الذي جعلهم هدفا مكشوفاً لنيران القناصة ، وجهل السيد الصحفي بمراكز المقاومة المسلحة ، لا يعني عدم تركزها في شياح الداخل ، وللعلم .. لولا وجود المقاومة المسلحة تسليحا جيدا لاجتاحت الشياح ، واستبيحت . ساعتها لن يكون بمقدور السيد الصحفي - فيما لو كان وطنيا - ان يردد ما قاله منذ قليل ، لانه سيكون في عداد الموتى ان شاء الله ..

كان اسعد قد آل الى حال لا يستطيع معها ان يظل واقفا بثبات ، وملتزما الصمت في الوقت نفسه .

- ... سادسا - وهذا لعلم السيد الصحفي اخيرا - ابراهيم لم يأت بجميلة ، كما صرّح الاول ، بل ان الثاني التقاها عند ظهر اليوم - قبل تجدد القصف - في ساحة قرية ، تشارك الكثيرين - ومن ضمنهم افراد المقاومة - في رفع ركام احدى البنايات ، من اجل اتقاذ الاحياء المطمورين تحت الانقاض . هناك رآها ، ومن هناك رافقته بالمجيء الى

هنا ، ويظن ابراهيم ان لا حاجة به للقول : جميلة - بسوقها العملي
المشارك - اثبتت بما لا يدع مجالا للشك طيب معدنها ، على العكس
تماماً من السيد زوجها الذي اثبت بما لا يدع مجالا للشك كذلك ،
انه ليس جديراً بها ، او بالاحرى... .

وبطبيعة الحال لم يثلق اسعد اسلحته ، ويستسلم بالسهولة التي قد
تخطر على البال .

بعد عودته الى داخل السرداب مخذولاً ومهموماً ، واجه اسعد
زوجته بسؤال غاضب :
- لماذا جئت ؟!

اذ انه لولا مجيئها في وقته غير المناسب لما حدث ما حدث ، واصبح
اسعد هدفا سهلا لمحاضرة طويلة عريضة ، لا تخلو من تلميح بالاهانة .
فوجئت جميلة بسؤاله غير المتوقع ، فتطلعت اليه مندهشة ، واجابت
عاتبة :

- جئت لأطمئن عليك !

يسقط في يده . يصمت برهة قصيرة ، من اجل ان يبحث عن مبرر
آخر لادانتها .

- والاولاد ؟!

تتذرع بالصبر .

- تركتهم عند اهلي .

يلوذ بالصمت لبرهة اطول من الاولى ، متطلعا بحقد في وجهها ،
البحث عن مبرر للادانة ما زال دافعه .

- قولي لي ...

ويعلو صوته :

- ... اهنالك أم لديها ذرة صغيرة من العقل تترك اولادها بعيدا

عنها ، في مثل هذا الظرف ؟!

- ماذا قلت ؟!

هتفت بحدة • ها هي جميلة تعود لطبيعتها السابقة في تعاملها معه •

— •• وهل هناك أب ••

صرخت ، واستدارت بكامل جسدها كي تواجهه ، مستطرده بأعلى :

— •• عاقل يطلب من زوجته ان تعرض اولادهما للموت ؟!

الدماء تفرّ من وجه اسعد •

— أنا ••

كان بصدد توضيح وجهة نظره الاخرى • هو لا يقصد ما تهدف

اليه ، لولا مقاطعتها الصارمة :

— انت مجنون !!

فلم يجد بدّاً سوى الاستدراة على عقيبه •

— تعال !!

لكنه يتجاهل ضيحتها الآمرة ، ويتجه صاغرا الى حيث يجتمع

الرجال ، بينما راح فمه يغمغم سبابا خافتا •

أمر يبعث على الخجل الشديد ان تصاب في هذا المكان بالذات .
 يضاف الى ذلك عدم قدرتها ان تجلس بشكل طبيعي ، او بالاحرى عجزها
 عن الجلوس منتصبه او مائلة ، اذ ان عجيزتها في الحاليتين ستلامس
 الارض ، مما يتسبب لها بألم حاد من جهة •

— وهناك احتمال تجدد النزيف !

كما افادت مارسيل من جهة اخرى •

— لو كانت لدينا ضمادات !!

واكتفت مارسيل بتنظيف الجرح ، مستعينة ببعض ما توفر لديهم
 من مياه معدنية •

— بمجرد توقف القصف سأذهب بصحبتك الى المستشفى !

قالت مارسيل ثالثة ، واستطردت :

— وحتى لو استمرت الحرب اياما اخرى ، فلا خطر من حدوث
 مضاعفات ، لان الجرح سطحي ، وجسدك — والحمد لله — متين وشاب •

— شاب ؟!

تساءلت جميلة بسخرية حزينة ، وازافت :

— انت طيبة !

اليس من غرائب الصدف ان تصاب هي ، ويصاب زوجها في

يوم واحد؟!

— اصاباتي بسيطة •

قال اسعد موضّحا ، ردّا على سؤالها :

— ما هذه الضمادات؟!

ولأنهما اعتادا على المشاحنات اليومية ، وبسبب من الظرف الطاريء

اغفلا موضوع الاولاد •

كانت الشمس على وشك المغيب • العتمة بدأت تعمّ السرداب ،

وقال اسعد موضّحا :

— فجر اليوم خرجت لجلب الماء والطعام ، وبينما انا في طريق

عودتي تعرضت لاطلاقات غزيرة من مدافع رشاشة ، بيد اني كنت اسرع

بديهة منك ، فبادرت الى الارتقاء على الارض ، متظاهرا بالموت ، ومن

سوء الحظ كانت الارض مليئة بنثار الزجاج مما سبب اصابتي في

فخذي •

— الجروح تؤلمك؟!

تساءلت ، فأجاب من غير مبالاة :

— قليلا •

وجرحها هي يكاد يشلّ حركتها • في البدء اضطرت لان تظل

واقفة ، قبل ان تستسلم لالحاحهم ، فتضطجع على بطنها صاغرة •

منطقة الجامعة العربية — حيث كانت جميلة تقيم لدى اهلها منذ

صباح اليوم الاول للاشتباكات الاخيرة — لم تتعرض لمثل هذا القصف

والدمار •

بل انها (المنطقة) كانت في مأمن يكاد يكون تاما ، لولا بضع

اطلاقات ، من مدفع ما ، سقطت في الشارع •

كثافة الفدائيين بصورة خاصة ، والفلسطينيين الى جانب العرب

الموجودين بصورة عامة ، جعلت من الجامعة العربية منطقة شبه آمنة ، او

« منطقة محررة » كما يتناقل الشباب فيما بينهم متفائلين •

لهذا السبب ترى حياة الناس هناك اقرب الى الطبيعية ضمن

حدود المنطقة ، خلال ايام الاحداث .
وكان بإمكان جسيمة ان تظلّ منع اولادها هناك ، ريثما تستقر
الاورضاع ، بيد ان اصوات الانفجارات ، ودخان الحرائق ، وما تسعه من
اخبار يتناقلها شهود عيان ، وتخصّ منها ما يدور حول مكان تواجد
زوجها .

* لا يوجد في الشياح بيت الا واصابته قذيفة ، او بالاحرى مجموعة
قذائف .

* الكثير من البنايات تهدمت .
* الجثث في الشوارع وتحت الاتقاض .
* الباقون على قيد الحياة من اهالي الشياح سيموتون خلال يومين او
ثلاثة من جرّاء العطش والجوع .
* خطر انتشار الاوبئة يهدد الشياح .
* الكهرباء . الخبز . عين الرمانة بسبب قربها من الشياح .
القذائف بالمئات ليلا ونهارا . القنّاصة . الضحايا الارباء من
فلسطينيين ولبنانيين . افراد المقاومة - هناك - يتصدّون ، ويصدّون .
تلك الاخبار هي التي دفعتها للمسارعة بالتوجه الى منطقة
الشياح منذ الدقائق الاولى لوقف اطلاق النار صباح اليوم .

الطريق مشيا على الاقدام . الناس :
* منطقة المسلخ ازيلت من الوجود !
الجزع . اللهاث .
- والشياح ؟!
خطواتها اقرب الى الهرولة منها الى المشي . الاجهاد . الخوف .
القلق . من يدري ...
« لعل اسعد ... »
لكنها تسارع لطرد خيالاتها .
« لعله لم ... »
وما كان لقلقها وفزعها ان يزايلها لولا التقاؤها - عند حدود

الشيح - بارشاك مصّح الاحذية •

- سلامات يا جميلة !

فالتقطت انفاسها •

- سلامات !

ولم تخفف من سرعة سيرها ، فلحقها صوته :

- لم يصب احد من سكان بنايتكم •

قدماها تكفّان •

- صحيح !!

الاعياء يطبق على ركبتها •

« اسعدحي ! »

ثم تهالكت على الرصيف •

- انت مريضة ؟!

سأل ارشاك وهو يقترب •

- لا •

اجابت لاهثة ، واستطردت :

- هل رأيت اسعد ؟!

- رأيت جاركم بولص قبل قليل •

الشيح ليست الشياح • بعدما اطمانت على اسعد تستطيع ان

تري • كل الوصف الذي سمعته لا يعطي صورة قريبة عن واقع

الدمار والموت •

- منطقتكم أوفر حظا من منطقة المسلخ •

قال لها احد شباب المقاومة، وهو يراها واقفة مبهوتة ، ازاء رتل من

الجثث ، التي كان يجري رصفها قرب جدار نصف متهدم •

- ليس من السهل التعرف على هوياتهم !

ردد الشاب مشيرا الى الجثث المنتفخة ، واتم بصوت متعاطف رقيق :

- ان كنت تبحثين عن شخص معين ••

— فاجتاحتها رعدة حادّة كادت تفقدها توازنها ، لدى تصورها
ان يكون اسعد مرصوفا .

— لا .

اجابت مفزوعة ، وسارعت مبتعدة .

الناس بوجوه قاتمة ، ونظرات فارغة ، الا من الاحساس بوطأة
المأساة •

طواير طويلة من البشر المطأطي الرؤوس تقف منتظرة دورها امام
ابواب عدد محدود من حوانيت البقالة ، صادف الحظ اصحابها ، فسلمت
من النهب •

الشوارع بمعالمها الجديدة تتفرع ، وعند ساحة خلفية صغيرة ، غير
بعيد عن مكان سكنهم رأّت حشدا ، خليطا من الرجال والنساء وشباب
المقاومة ، يعملون على رفع كدسة هائلة من الاقراض •

— بسرعة !! •• بسرعة !!

— من هنا !! •• تعالوا من هنا !!

— نحن بحاجة لمزيد من الناس كي يباعدوننا !

صيحات متعالية • لاهثة • متداخلة • تنبعث عن الحشد • وعندما
اقتربت اكثر ، وصلت سمعها صيحات اخرى تختلف اختلافا تاما عما
ألفت سماعه •

« يا الهي !! »

همهمت ملتاعة ، وبرودة غريبة ، متململة ، تسري في جسدها ، لدى
سماعها صرخات استغاثة مخنوقة • عويل اطفال ونساء وصياح رجال ميت

الصدى ، ينبعث من تحت الانقاض ، يصلها وكأنه قادم من مكان بعيد ،
بعيد جدا . دقت النظر بين الاحجار ، بمحاولة لا واعية منها للنفاذ
الى ما تحت الركام .

— هيا .. ابدلوا مزيدا من الجهد !!
هتفت احدى النساء القريبات منها .

وهي تشارك في رفع الانقاض التقت بابراهيم .
— متى عدت من السفر ؟
فأجابها بكلمة واحدة :
— الآن .

لكن انشغالها المحموم بالعمل في رفع الانقاض منع ذهنها عن
استيعاب :

« ابراهيم لا يعلم شيئا عن عائلته »
ولم تراودها فكرة ان تقول له :
— ارشاك خبرني : لم يصب احد من سكان بنايتنا .

وهي تتعاون مع ابراهيم على اخراج طفل سليم من بين فجوات ركام
الاسمنت والحديد بعد زهاء ساعتين من لقاءها به قالت له بصوت خفيض :
— مبروك سلامة زينب والاولاد .

كان الاحساس بالانتصار على الانقاض يشملها ، فتطلع اليها ابراهيم
بعينين تجسّدان عرفانا بالجميل كبيرا ، ولم يسألها التفاصيل .

وعندما تجدد القصف — مما اضطر غالبية الناس الى الانقراض
متراكضين نحو السرايب — بقي ابراهيم الى جانب افراد المقاومة يعملون
وسط الانقاض — تحت وابل القصف — حتى تمّ لهم انقاذ آخر الاحياء
المحتجزين .

إبان القصف تساءلت جميلة مع نفسها :
« اين اذهب ؟! »

ابراهيم - على ما يبدو - ادرك حيرتها • صاح بها :
- اركضي الى اقرب سرداب !

- *****

- هيا اسرعي !!

الناس انقضوا • الشوارع اقمرت • الخوف • دوي المدافع •
الانفجارات • أزيز الصواريخ • الرعب • ولم تجد جميلة غير ان تحتمي
لدى اقرب جدار •

لكن ابراهيم الذي صحبها معه في طريق عودته الى هنا ، جاعلا من
ظهره جدارا لحمايتها ، لم يفكر باصطحاب زوجها في المهمة التي ينوون
.. هو وحنا وبولص - تنفيذها الليلة •

هي تعرف : « تصرفات اسعد تتسم بالتهور » بيد ان شيئا من
التوجيه • النصح • الانضباط • سيأتي ببعض الفائدة ، لا بد •
ايام الاحداث - وعلى الاخص هذا اليوم - علمتها : ان لا مكان
لانسان محايد في مثل هذا الطرف بالذات •
وان تقف متفرجا في الوقت الذي يتعرض فيه اخوتك للافناء معناه :
« انت تشارك بشكل وبآخر في افنائهم » •
لو لم تكن جميلة مصابة ، ولو كانت مصابة في مكان ما غير
اليتيها ...

- اسعد !

همست بصوت يشي بالخطورة • كان يجلس على بعد يسير منها ،
وعندما التفت اشارت اليه •

- تعال !

فزحف مقتربا •

- ماذا تريدن ؟!

لهجته تنم عن احساس بالضيق • كانت لا تزال مضطجعة على
بطنها ، بسبب جرحها •
- أنت ذاهب معهم ؟!

تساءلت ، وهي نشير - مستعينة برأسها - باتجاه ابراهيم وحنان
وبولص ، حيث كانوا قد عادوا الى باب السرداب للتأكد من موقع
مكمن القناص للمرة الاخيرة .

- .. سيأخذونك معهم ؟!

- لا .

اجاب ، وابتسامة ساخرة ترسم على فمه .

- هم مجانيين !

عاد للقول ، و اضاف بثقة لا تقبل النقص :

- يظنون : القضاء على قناص واحد - هذا فيما لو نجحوا -

سيضع حدا حاسما للحرب القائمة !!

فتطلعت اليه جميلة برثاء حزين .

- انا واثقة : « انت غبي كبير » ، لكن الذي يدهشني :

انك تجيد - بقدرة مذهلة - تحليل الامور بطريقة تسيء بها
لنفسك !

عضلات وجه اسعد تختلج .

« ماذا ؟! »

ثم يغنم بعد ثوان من الصمت المستوفز :

- الله يسامحك !

- ويسامحك !

ردت بسرعة ، واثمت :

- لماذا لم يشركوك معهم ؟!

يهرب بعينه عن وجهها .

- لا ادري .

شيء من الحدة ينتاب صوتها :

- تدري .. وتغالط !!

-

ولما لم يأتها ردّه ، عادت تقول :

- هل عرضت عليهم فكرة ذهابك معهم!؟
- الخدلان في صوته :
- سيرفضون عرضي !
- الغضب خائفا يطبق على حنجرتها :
- هل عرضت عليهم!؟
- الانهزام في اجابته :
- لا !

الفكرة التي خطرت في ذهن حنا اثناء رصده لنافذة المبنى الواقع في الحي الآخر « قنص القنّاص » لم تتخذ طابعها التنفيذي الجدي منذ البدء . فالفكرة « الخاطرة » لدى ورودها في الذهن للمرة الاولى لم تتعد حدود الطموح ، او بالاحرى الحلم بالتنفيذ ، اذ ان عملية التسلل من هذا الحي الى ذاك ، ومواجهة عدو مسلّح ، كانت اشبه بما يثرى في بعض افلام الحرب العالمية الثانية .

عدد قليل من الجنود يتسللون عبر خطوط الالمان . يتعرضون لمغامرات مثيرة ، قبل ان ينجحوا في تنفيذ المهمة الموكلة بهم . نفس طرق امدادات . تفجير مخازن وقود وذخيرة . تدمير انشاءات . سددود . ليعودوا بعدها الى قواعدهم سالمين .

يضاف الى ذلك ان خبرة حنا العملية تكاد تنحصر في العمل السياسي الدعائي منه والتحريضي ، عدا خبرة محدودة - اربعة اسابيع من التدريب على استخدام السلاح - حصل عليها صيف السنة الماضية ، بتوجيه من التنظيم ضمن فصائل الحرس الشعبي ، في الجنوب .

بيد ان الدراسة المستفيضة للفكرة بينه وبين ابراهيم من جهة ، الى جانب اشراك بولص - بعد ذلك - من جهة اخرى ، لم تدخل تلك الفكرة في حيز امكانية التنفيذ فقط ، بل تعدتها الى ما هو أبعد ، الضمان بنجاح مؤكد .

— الرصاص الذي يستهدفنا خاصة يأتي من تلك النافذة !
قال ابراهيم ، و اضاف :
— ذلك القنّاص يتخذ من مكمنه موقعا استراتيجيا يشرف علينا ،
ويستطيع عن طريقه ان يستهدف كل حركة من حركاتنا •
— سيتصيدنا واحدا واحدا بمجرد مغادرتنا السرداب ، ولعله سيفعل ،
حتى في حالة وضع قرار وقف اطلاق النار موضع التنفيذ •
— هذا احتمال وارد ، فمثل هؤلاء العملاء ...
كانا ما يزالان واقفين ، يَحْتِمَانِ بالجدار عند مدخل البناية ،
وعيونهما على النافذة البعيدة •
— لو انتظرنا الى ما بعد حلول الظلام ، وسلكنا — متسللين —
طريقا فرعية ...
فقاطعه حنا متسائلا :
— وماذا عن السلاح ؟!

وهما يستفيضان في بحث امكانيات التنفيذ قال حنا موضحا :
— عن تحديد موقع البناية بالنسبة للحي ، ومعرفة طبيعة ما حولها
• بولص يفضلنا جميعا ، بحكم مهنته ، التي تحتّم عليه التجول المستمر •
— انت على حق •
اجاب ابراهيم ، وصمت لثوان مفكرا
— ما رأيك •• هل ندعوه ؟!
فردّ حنا على الفور :
— ندعوه •

الاتشاء العسكري الصارم يأخذ مداه لدى بولص •
— ليس فقط في تحديد المكان !
قال ، وبريق خاص ينبعث من عينيه الضيقتين •
— •• وانما فيما هو اكثر ايضا •• ارجو ان لا تغفلوا جانب خبرتي
العسكرية الطويلة !

– « ولو » !

هتف حنا مشجعا باخلاص ومرح صادقين ، في الوقت الذي اكمل فيه ابراهيم :

– ستشارك معنا قدر طاقتك •

فقد بولص حاجبيه الكثين منفعلا •

– ما الفرق بين طاقتي وطاقاتكم ؟!

– لا فرق •

اجاب حنا ، ويده تربت على كتف بولص ، واطاف :

– دعنا نبدأ بموقع البناية اولا !

الحزم في سؤال بولص :

– اية بناية ؟!

وعندما تكلم بولص افاض •

– البناية التي يتحدثون عنها تقع على مرتفع من الارض ، وتشرف ،

من الخلف على الشارع العام الذاهب الى الشام •

بامكاننا الوصول اليها من منافذ متعددة ، وعلى الاخص انها بياين

كبيرين • الاول رئيسي امامي ، والآخر جانبي خلفي ، يطل على

المنحدر •

لو اخذ رأي بولص بهذا الخصوص ، لأوصى بأن يتم التسلل الى

المبنى عن طريق الباب الرئيسي ، فهو مأمون ، والبواب القائم عليه

متزوج حديثا من فتاة تصغره بسنوات كثيرة ، اما الباب الجانبي ، فهو

قريب جدا من نقطة مستحدثة لرجال الدرك ، اضافة الى بوابة الاعزب

« الياس »

* ملاحظة لبولص :

– افضل وقت يناسب التنفيذ هو الساعة التاسعة ليلا •

فتساءل حنا :

– لماذا ؟!

– المعنيون ليسوا عسكريا نظاميا ، لهذا تراهم يشغلون في ساعات

الليل الاولى بالعشاء والحديث وما شابههما ، بسبب استمرار اطمئنان
النهار ، حتى اذا ما تقدّم الليل فرض عليهم خوفهم من الظلام
حراسة متيقظة ومستمرة الى الفجر .

فعلّق حنا :

— رأي وجيه .

وعقّب ابراهيم :

— جدير بالدراسة .

فرحة طفولية غامرة تنبعث من عيني بولص .

— لست غريبا على حيّ عين الرمانة .

—

وما احسن بولص بالخذلان بسبب من عدم اهتمام الشابين لسماع
كلماته الاخيرة . كانا منشغلين بمناقشة نقطة مهمة ضمن الخطة .

— عملية التسلل يجب ان لا تتمّ باختراق مباشر عبر الشياح ، لان

جميع مسالك الشياح — المؤدية الى الشارع العام الفاصل بين المنطقتين

— تخضع لمراقبة دقيقة من جانب قناصتهم .

قال حنا ، وعقّب ابراهيم متسائلا بحيرة :

اذن ؟!

فكانت فرصة بولص كي يظهر خبراته .

— المسألة هيّة جدا .

الشابان يتطلعان اليه . الزهو العسكري .

— . . . باستطاعتي اصطحابكم الى حيث تشاءان ، عبر طريق

جانبية تدور حول الشياح من الخلف ، وتنتهي عند حديقة الكنيسة .

يحصّر ما بين حاجبيه .

— . . فاذا تخطينا سور حديقة الكنيسة — وهذا ممكن — صرنا

على بعد خطوات معدودة من هدفنا .

— سور حديقة !!

ردد ابراهيم بارتياح وهو يتفحص جسد بولص الهزيل •
الاحتجاج في صوت بولص :
— لا تخش شيئا ! •• بمقدوري تخطي اسوار عشرات الحقائق
بسهولة ، تلك امور تدربت عليها كثيرا ايام الجيش •

تظل جملة من امور اخرى مهمة ، لا يمكن تجاوزها بحال من الاحوال ، ان كانوا جادين ليس في بحث الموضوع وحسب ، وانما في التنفيذ أيضا .

— لنفترض اننا وصلنا بسلام ..

قال حنا • كانوا ما يزالون واقفين في المدخل ، غير غافلين عن رصد النافذة البعيدة ، واكمل :

— ... دخلنا المبنى بسلام ..

سادت لحظات من الصمت المستوفز ، قبل ان يستدير حنا ليواجه بولص ، مستطردا بنفس واحد :

— • فكيف سنوفق لمعرفة الغرفة التي يحتمي بها القناص ، فنصل اليه من داخل المبنى مباشرة ، دون ان نتخبط في غرف اخرى ، فنعرّض انفسنا لمخاطر نحن ..

وكفّ • بولص الذي كان فاغرا فاه ، دلّل على انه لم يستوعب بعد ، مما اضطر حنا الى طرح وجهة نظره بأسلوب آخر !!

وجه بولص يتهلل •

— هذه مسألة هينة •

اجاب بثقة ، ولما جوبه باندهاش الاثنين استطرد بثقة اكبر :

— اذا حدّدنا موقع النافذة بدقة ، استطعت ان احدد لكم موقع

كل من الشقة والغرفة بدقة ماثلة .

— كيف ؟!

سؤال صدر عن ابراهيم ، فالتمتعت عينا بولص .

— المبنى الذي يتحدثون عنه اشبه بسجّج تجاري يضمّ في ادواره الخمسة الاولى مكاتب الشركات ومؤسسات ومحامين ، اما الطوابق الثلاثة الباقية فهي عبارة عن شقق سكنية .

وبولص بحكم تردده الدوري على المبنى (تذاكر الياصيب) يكاد يحفظ خريطته الداخلية عن ظهر قلب .
ابراهيم وحنا يتابعان كلامه باهتمام .

— .. من حسن الحظ ان النافذة التي هم بصدددها تقع في الطابق الخامس .. بمعنى آخر : ضمن الادوار التي كثيرا ما ارتادها بولص .
حنا يهزّ رأسه موافقا ، بعدما اعاد النظر الى المبنى .
— .. وانت تغادر المصعد الى الطابق الخامس يواجهك باب غرفة الخدمة الخاصة بالطابق .

على يسار الباب ثلاث شقق تطل على المنحدر ، تقابلها ثلاث اخرى تطل على الشارع ، وعلى يمينه ثلاث ثلاث ايضا ..
ابراهيم وحنا يتبادلان نظرات منسجمة .
— .. ولان كل شقة تواجهها من هنا لها ثلاث نوافذ فباستطاعتنا ...

لكن حنا قاطعه :

— هي النافذة العاشرة من اليمين .
يضيق بولص من فتحة جفنيه مفكرا ، قبل ان يهتف بفرحة اكتشاف :

— والعاشرة من اليسار .. أنا مصيب ؟

— مصيب .

اجاب ابراهيم ، فتفتق فم بولص عن ابتسامة سعيدة واسعة وهو يردد بثقة لا تقبل الشك :

— القنّاص يتخذ من غرفة خدمة الطابق مكننا له •

على أثر ذلك انتقل الجميع الى الداخل ، واذهانهم مشغولة بكيفية
تدبير السلاح اللازم •

قال ابراهيم وعيناه على وجه زينب :

— لدي مسدس اوتوماتيكي صغير •

فبان الاهتمام في وجه زينب ، وقالت :

— ما زال موضوعا تحت طيّات ثيابك ، في الدولاب •

— والاطلاقات ؟

— انا اعرف مكانها •

أجابت فائزة بحماس ، وامت متوجهة لاييها بلهجة فيها الكثير
من التوسل :

— هل اذهب وآتيك بها ؟!

— ليس الآن •

قال ابراهيم •

— ... الظلام اكثر أمنا •

— ايام كنت في الجيش كان لدي مسدس فرنساوي كبير يخصّني،

اضافة الى السلاح العسكري •

اطلق سعة مبتورة •

— .. العسكري استعادوه حين احوالوني على التقاعد •

الحزن يتسرب الى صوته :

— .. الفرنساوي اضطررت لان ابيعه ذات ليلة بثمان رخيص •

ليرات معدودة • مكسيم صاحب البار هو السبب ..

قال لي : اما ان تدفع ماعليك ...

فأملت حنا ضحكة قصيرة مشاركة ، وهو ينقل نظراته من

وجه بولص الى وجه أمه •

— لدينا مسدس صغير يخصّ والدي ..

بعدما تنحّ اسعد مرات عديدة :

— اولاً : هو يفتتم فرصة الحديث عن السلاح لينتقدّم باعتذاراته
الرفاقية !

حنا و ابراهيم يتبادلان نظرات الدهشة .

— .. ان ارادوا الحقيقة : اسعد ما كان يعني ما بدر عنه من
كلام ، ساعة كانوا عند باب السرداب .
بولص يهزّ رأسه موافقاً .

— ... انفعاله الشديد — غير الطبيعي — بسبب ما تعرضت له
جميلة من موت يكاد يكون محققاً هو المحرك الاساسي لكل
الذي بدر عنه .

الاهتمام في وجه بولص .

— ... تلك الدوافع مجتمعة أدّت الى طغيان العاطفة العائلية —
وهذا ما يجب ان لا يحدث ثانية — على الفكر الثوري لفترة قصيرة .
بولص يفغر فاه .

— .. لا أحد — كما يظن اسعد — يسعى الى التشكيك بوطنية
اسعد وحوافزه . وما اعتزاله للعمل الفدائي الا نتيجة منطقية حتمية
لموقف عقائدي محض ، لا علاقة له بالحقّ الثوري .
بولص يصرف النظر عن السماع .

— ... فعليه — وليس بدفع من زوجته ، كما قد يتبادر الى
الذهن — هو يعرض عليهم ، ويلجّ ان ينضم الى مجموعتهم العاملة
في الارض اللبنانية .

الاهتمام يعود حائراً الى وجه بولص .

— ... ثالثاً : فيما يخصّ السلاح ، هو يمتلك سكيناً حادة ،
ذات طعنة لا تخيب .

بولص يتسم للمرة الاولى •

– .. رابعا ..

وتبدى الاحساس بالأهمية والخطورة في لهجة اسعد اثناء

اتمامه :

– .. لا بد لنا – قبل كل شيء – ان نتفق على : من منا سيتولى

قيادة مجموعتنا الانتحارية هذه !

كان اسعد قد اندفع بحماس موضحاً وجهة نظره الخاصة بالقيادة :

— لا بد لقائد مجموعتنا ان يكون على المام واسع برسم خطط هجومية ، تكون متناسبة مع حدود الواقع ، حسب امكانياته المتمثلة بالاشخاص من حيث النوع والعدد ... ومتوازية مع السلاح من حيث الكم والقدرة ، دون ان تغيب عن ذهنه نقطة مهمة جدا .. وتطلع في من حوله .

— .. الانسحاب ، او بمعنى آخر أدق : عودة جميع افراد المجموعة سالمين ، الى جانب ضرورة تسمية الشخص الذي يتولى عملية تغطية ...
— اختصر !!

قاطعته ابراهيم بنفاد صبر بادٍ ، فارتبك استرسال اسعد للحظات .
— ما أعنيه باختصار . لا بدّ لقائد مجموعتنا ان يكون مثقفاً اولاً ، وفدائياً .. لا تنقصه الخبرة ثانياً .
— لكي تطمئن ...
قال حنا ، وضحك مستطرداً :
— ... لن نكلّفك مسؤولية قيادتنا .

فارتجفت شفتا اسعد ، واصطبغ وجهه بالدم ، في الحين الذي
تداعى فيه سؤال حائر امام ذهن ابراهيم :
- لماذا بصر هذا الرجل على الاساءة لنفسه لدى كل فرصة
تسبح له !?

نادرة جدا هي المناسبات التي يلتقي فيها ابراهيم بنماذج من
المتعلمين المتأجرين بالكلمات ، على شاكلة اسعد .
ولانه - بسبب من طبيعته الشخصية ، وطبيعة عمله - غير مؤهل
لاقامة ايما علاقة بواحد منهم ، نراه سرعان ما يسقطهم من حسابه خال
ابتعاده عنهم .
ولو انه رجع لسنوات جبرته مع اسعد ، وهي كثيرة ، لاستطاع ان
يحصر المرات التي تبادل فيها الكلام مع الاخير ، بمرات ثلاث او
اربع .
احداهن كانت قبل اشهر ، عندما أبدى الرجل استعدادة لتدريس
فائزة دون مقابل ، على امل اتمامها لدراستها وهي في المنزل .
بيد ان الرفض العنيف الذي جابهت به زينب الفكرة ، دفع ابراهيم
لان يشك بنوايا صاحب العرض .
- هل تعتقدين ..
فيحث بعينها عن ابنتها فائزة .
- لا استبعد .
الغضب يتنمل في صدره .
- ان صدق ذلك ، فهو ...
وآخرها كانت اليوم : « انت السبب .. انا بصفتي فلسطينيا لا
اتوقع من السلطات ..

علاقات ابراهيم الحقيقية هي تلك التي تربطه الى زملائه من
رفاق المهنة .
رجال اشداء قساة الملامح من الخارج بحكم العمل الذي يمارسونه

« قيادة الشاحنات » وبسطاء ، طيبو السريرة كما الاطفال من الداخل •
خليط من الفلسطينيين ، والسوريين ، واللبنانيين والاردنيين ،
وآخرين ، يجمعهم رباط واحد • الخط الاسفلتي الطويل المتد ما بين
بيروت وبلدان الخليج •

وتجمعهم ايضا نظرة الى الامور اقرب الى ان تكون واحدة ، وان
اختلفت اساليبهم في التعبير عنها ، فالاسود لديهم اسود ، والابيض
ايض ، ولا لون وسطا بين الاثنين ، كما هي الحال لدى المتعلمين •
هم يعرفون - بحكم معاناتهم - ان مصالح مالكي الشاحنات
ومصالح التجار تلتقي مع مصالح مشعلي نار هذه الحرب •
وابراهيم - على الرغم من الثقة التي اولاهها له كل من حنا وبولص
عندما أزمعا ترك زمام المبادرة فيما يخص مهمة الليلة اليه - لا يستطيع
مواجهة اسعد :

- لا •

لأن اسعد - مثله مثلهم - له كل الحق ان يشارك في موته •

ما جاء ادراك ابراهيم لجسامة ما سيواجهونه من خطر اعتباطا ، بل
انه - وبسبب من احتجازه مع الشاحنة لمدة يومين في بحدون ، قبل
مجيئه الى هنا - رأى رؤية الغين مدينة بيروت ، وهي تتحول في الظلام
طيلة تينك الليلتين - الى كتلة رهيبة من اللهب • ساعتها خيل اليه -
وهو على الجبل - ان المدينة كائن حي هائل الحجم ، له آلاف الاذرع
الجهنمية المصطرعة •

وقف اطلاق النار الذي امهله فرصة ان يصل لم يدم سوى ساعات،
وهذا الليل المقبل سيضعهم ليس في مخبأ او سرداب ، وانما وجها
لوجه وسط تلك الزوبعة النارية الهائلة •

يضاف الى ذلك ان العملية التي ينوون تنفيذها لا تتمثل عبر
مغامرة محدودة ، الخروج من اجل غزوة صغيرة ، حانوت بقالة ، كما
عرف عن خروج حنا بالامس ، واسعد فجر اليوم ، بل انها عملية انتحارية
بنسبة نجاح ضئيلة ، فهم مقبلون على اقتحام خطوط الاعداء ،

ومواجهتهم داخل حصونهم ، بأسلحة تكاد تكون بدائية ، اذا ما قورنت بما يتوفر لدى الخصم ، ودون معرفة لعدد من سيواجهونهم .
لكن الحرب - وقد رآها من على الجبل ، وتتايجها بعد ما رآها في الشياح - تدفعه لان يشارك - ما دامت الفرصة سانحة - بوضع حد لها .

هو فلسطيني ، لا مجال للشك ، وهو فدائي .. كان بالامكان ، لكن كسب لقمة العيش .. الزوجة ، الاولاد ، وطريق بيروت الكويت .
غير ان وضعه المعيشي ذاك لا يمنع ان يكون بشقيق أصغر ، وابن عم فدائيين ، لعلهما يحاربان الآن في مكان ما من بيروت ، او الجنوب ، ان لم يكونا قد استشهدا .

المرارة في فم ابراهيم . التصميم والتردد يتناوبانه .
حنّا ما زال شابا في المقتبل . من هنا يجيء اندفاعه العاتي .
هو رائع ، ومن الخسارة فقدانه .

بولص .. الاخرى به ان تتوفر له فرصة الرعاية بعد شبخوخته .
طيب ، وحماسه يجيء امتدادا لايامه العسكرية .

اما اسعد فهو أرعن ، ومن المحتمل ان يواجه الموت دون ان يفهم ما يعنيه الموت .

كل الذي يشغل باله : « الرجال سبذهبون .. اذن هو رجل »
ويبقى احتمال ترميل جميلة ، وتيتم الاولاد .
« انا ... »

وما وجد متسعا من الوقت ، ولا رغبة في مناقشة وضعه الخاص ، ومصير .. زينب .. فائزة .. الرضيع ياسر .

الاحساس بجسامة المسؤولية يبقى كبيرا ومعذباً .
« لا ادري !! »

ومن اجل ان يخفف ابراهيم من احساسه ذاك توجه الى حنا قائلاً :
- لدي أمر مهم اود مناقشته معكم !

كان الظلام قد بدأ يخيم على الشياح ، فتزداد حلكته داخل
السداب •

— مهمتنا صعبة للغاية ، واحتمالات نجاحها ..

فقاطعه حنا معاتبا وجادا في الوقت نفسه :

— هل تفهم من ذلك انك بصدد الغاء العملية ؟ !

أحس ابراهيم كما لو ان كفا فولاذية تطبق على رقبتة •

— لا •

أجاب باقتضاب ، وانفضّ الاجتماع •

اخذت اقتراحات بولص جميعها بعين الاعتبار ، عدا اقتراحه القاضي
بالتنفيذ بدءا من الساعة التاسعة مساء •

— الساعة الثالثة صباحا هو الوقت الافضل •

قال ابراهيم ، ولم يعترض اي من الثلاثة الاخرين ، سوى تعليق
عابر من اسعد :

— هذا رأيي ايضا ، ولم اصرّح به •

١

ما كان ليخطر في بال أي من النباء المنتظرات ان يعود اسعد وحده ،
بعد حوالي ساعة ، ليصرّح بصوت راعش :

— بولص مات !

قبل ان يلتقط أنفاسه •

— •• أعني استشهد !

كان أشبه بالشبح الذي اقتحم عليهم السرداب فجأة •

— •• قتلوه قرب سور الكنيسة !

يدور بعينين مضيّعتين على وجوههم التي جمدها الفزع ، وشلّها
الترقّب •

— حنا •• اصيب باطلاق ناري في صدره !

شهقة مكتومة تصدر عن مارسيل •

— ••••• اصابته — كما يقول ابراهيم — ليست قاتلة •

يتهالك جالسا •

— كنّا في طريق مغادرتنا للبنائية ••

سؤال متردد اقرب الى صرخة حبيسة يصدر عن زينب :

— وابراهيم !؟

يلتفت اليها •

— أخذ حنا الى المقاومة من اجل اسعافه •

ثم سؤال مخنوق يصدر عن جميلة :

— والقنّاص؟!!

يلتفت ناحية فائزة •

— كانا اثنين ...

يسحب ل صدره نفسا قصيرا •

— ... « خلّصنا عليهما » •

* في الليل :

الكثير من مناطق العاصمة تعاني من شحّة شديدة في مياه الشرب ، وكذا عن حاجتها الى الخبز ، عدا معاناتها من خطر انتشار الاوبئة •

حصيلة اشتباكات يوم امس — حسب التقديرات الاولى — تربو على الثلاثماية ما بين قتل وجريح ، واليكم قائمة باسماء القتلى الذين عرفت هوياتهم :

صالح سلمان (طفل فلسطيني) ... عنان احمد (طالب ثانوي فلسطيني) ... عماد عمران (طالب جامعة .. بحريني) .. حاتم صادق (فلسطيني) ... سناء عادل (طفلة في الخامسة ... لبنانية) نبيل احمد (فلسطيني) ... سعيد احمد (فلسطيني) ... (فلسطيني) فلسطيني .. فلس ...

* وفي النهار :

صرّح مصدر كبير مسؤول : على كافة الاطراف المتنازعة ان يتحلوا بضبط للنفس اكبر ، وان يضعوا مصلحة لبنان ، وأمن لبنان ، واستقراره ، فوق الاعتبارات الشخصية ، والمصالح الفردية ، وان يبذل القادة منهم جهدا مخلصا أكبر للسيطرة على فئاتهم غير المنضبطة ، فأمن لبنان واستقراره ليسا مرهونين باللبنانيين وحدهم .. وانما هما امانة مقدّسة في اعناق اشقائنا الفلسطينيين أيضا •

لكن الذي يحزّ في نفس مارسيل ، ويحولها الى مرجل من الحقد والغضب والدهشة ان دمار منطقة الشياح ، وسقوط المئات من القتلى والجرحى ، ومن ضمنهم بولص وابنها حنا لم يكن بسبب من نيران مدافع الفدائيين .

« - اصيب باطلاق ناري في صدره ! »

صفعة ساحقة سقطت على وجهها ، واطارت صوابها . الدوار .
الاحساس بالضياع .

« هذا ما توقعته ! »

وجورج - هناك - في مستشفى لا يدري ! .. لو كان هنا !!
العويل ؟! .. كيف ؟!

« اصابته - كما يقول ابراهيم - ليست قاتلة »

هل تكفي بسماع تنف الاخبار هذه ؟!

لو ان الحرب ما كانت ! .. أو لو انها توقفت ! .. لركضت :
« اين ذهب به ابراهيم ؟! »

وعندما اتحت باسعد جانبا ...

- اصابة حنا ... كانت خطيرة !!

تردد اسعد لثوان .

- انت تدرين .. الظرف .. المطاردة .. الهرب .. الظلام ..

ولا استطيع الجزم !

قلبا يخفق بشدة عبر محاولتها لتمثّل مشهد اصابة ابنها .

قالت بصوت يتوقع :

- اظنه سقط على الارض حال اصابته ؟!

-

فنكّس أسعد رأسه صامتا ، وتدفّق القهر - موجة خائقة - في

حنجرة مارسيل :

- كيف سقط ؟!

يرفع عينيه اليها .

- اظنه لم يسقط •
- طيف فرح يركض على وجهها •
- ... لم اره يسقط •
- لا تستطيع منع كفها عن الاطباق على ساعد اسعد •
- رأيت ابراهيم وهو يحتضنه •
- كيف !؟
- هتفت بلهفة ، واصابعها تعتصر لحم ساعده •
- كان ابراهيم يسنده .. يساعده على الركض •
- ضحكة هستيرية تنفلت من فمها •
- حنا .. كان يركض !
- عيناها تدمعان • الضحكة بكاء مر •

تجفّف عينيها بطرف ثوبها • الرغبة الامومية الحارقة تدفعها
لأسعد اكثر •

- هل كان ينزف بشدّة !؟
- التفكير العميق يبدو على محيا أسعد •
- لا اظن .. انت تدرين .. الظلام .. الظرف ..
- التوسل في سؤالها :
- حاول ان تتذكّر ! .. كنت معها !؟
- شيء من التسلّط في لهجته :
- الاخرى بك ان تكوني واقعية !
- قال وازاف باقتناع كامل :
- .. ا هناك جرح بلا دم !؟ .. فما بالك برصاصة في الصدر !؟
- عزيمتها تخور • تراودها فكرة الاكتفاء من اسعد بما قاله ، لكن
- سؤالا آخر لا يزال يرعشها •
- عن الرصاصة ...
- وتشبّث بعينيها متوسّلة •
- .. هل كانت من جهة القلب !؟

ابتسامة مشاركة - للمرة الاولى - تبدو على وجه اسعد .
صوته يصلها واتقا ، صادقا :
- بخصوص هذا الموضوع بالذات استطيع الجزم ..
انقاسها مرهونة بحركة شفقيه .
- ... الرصاصة كانت في الجانب الايمن .
دموع العرفان والفرح تطفح في محجري عينيها . وجه اسعد -
كجسم مرئي - يتداخل ، وسؤال جديد يقفز الى ذهنها :
- اهي اطلاقه بندقية ؟! .. أم .. أم .. قذيفة !!?
صوتها الذي كان يشي ببارقة أمل ينهار فجأة ، ولا تمنع نفسها عن
الانخراط في بكاء منجوع .

• وأشعة الشمس ترسل انعكاسها باهتا عبر النافذة الضيقة للسرداب •
 اقتربت زينب من أسعد • كان دورها في معرفة شيء من اخبار زوجها •
 - متى يرجع ابراهيم ؟
 تساءلت بلهجة جهدت ان تجعلها طبيعية ، فنظر اليها اسعد من
 زاوية عينه •

- ابراهيم لن يرجع •
 اجاب بتصميم غريب دفع حاجبيها الى الارتفاع دهشة •
 - لن يرجع !!
 وانشدت عيون كل من فائزة وجميلة ومارسيل •
 - ... لماذا ؟!

سادت لحظات صمت مستوفز ، اجاب اسعد بعدها :
 - ابراهيم قال لي قبل افتراقنا : سأظل مع المقاومة ما دامت
 هذه الحرب ..

ولم يتمّ • احساس دخيل بالذنب بدأ يتنامى في داخله •
 « وانا !! .. اليس الاخرى بي ايضا ؟! »
 - ألم يقل شيئا آخر ؟!

السؤال صدر عن فائزة • صوتها برقة محببة ، ودّ لو يستطيع

• الانسجام

• لا -

رد باقتضاب أزعجه ، وسارع للهرب بعينه من مواجهة عينيها

• الواسعتين

« لا اجزم بأن فرصتنا ستحين ! »

بعد حديثه المقتضب مع زينب وابنتها خيّم على الجميع صمت ثقيل ،
يكاد يكون شاملا ، امتدّ طيلة ذلك النهار واللييلة التي تلتها ، على
الرغم من تتابع دوي الانفجارات واطلاقات الرصاص في الخارج •
فالحزن الذي ترتّب على مقتل بولص ، واصابة حنا ، الى جانب
القلق الناتج عن غياب ابراهيم ، تسببا في خلق جو مأساوي متوتر ، دفع
كثلا منهم لان يلوذ بافكاره صامتا ، عدا الاصوات التي كانت تنبعث عن
الراديو الترانزستور ، بين ساعة واخرى ، نظرا لاصرار مارسيل على
متابعة تطورات الوضع من خلال الاذاعة ، وجملة اخبارية قصيرة
صدرت عن فائزة صباح اليوم التالي •

• الماء نقد •

قالت ، وهي تأتي على جرعة الماء المتبقية في قعر القينة البلاستيكية •

• الماء نقد !

ترددت في ذهن اسعد اشبه بنذير الخطر •

« مأوهم نقد ! »

لا بد له من الخروج اذن • سواء الآن • أم بعد ساعة ، ساعتين •

الحر • العطش • وعلى الاخض ذلك الطفل الصغير ابن ابراهيم •

« - بالنسبة لي • • لن اعود الى البيت »

قال له ابراهيم - لحظة افتراقهما - بلهجة تنمّ عن يقين مضمّر •

كانوا - ساعتها - قد وصلوا منطقة الشياح ، وزال الى حد ما خطر

تلك المطاردة الرهيبة التي انتهت بمقتل بولص واصابة حنا ، فنقّل

اسعد نظراته الحائرة بين وجه حنا المتشنّج بالالام ، والوجه الصارم

لإبراهيم ، واستطرد الأخير :

— هنا بحاجة ماسة لاسعاف سريع .. النزيف !

ثم التقط أنفاسه ، كان هنا — بثقل جسده — يستند على كتفه .

— ... وانا بحاجة لأن أظلّ الى جانب أفراد المقاومة لحين انتهاء

هذه الحرب !

— وانا ؟!

تساءل اسعد بضياح يطمح لاتخاذ موقف ايجابي ، فاجابه ابراهيم
بالصوت الصارم ذاته :

— عُد الى السرداب !

وهو يتعد بحنًا صاح من غير ان يلتفت :

— .. هم بحاجة اليك هناك !

وما شعر اسعد في حينها ...

« هو يأمرني ! »

بل ان ضرورة اقتسام المسؤوليات بين ندين متكافئين هي الدافع
والحافز الذي تلقاه اسعد — راضيا — في القبول والتنفيذ .

« الماء نفد ! »

وطفق اسعد يذرع ارض المر الضيِّق — الممتد ما بين النافذة وباب
السرداب — جيئة وذهابا ، بخطوات بطيئة ، ووجه صارم .

— تبدو قلقا !

لكنه اهمل الرد على جميلة .

— ما بك ؟!

سألته بعد دقائق . طبيعة صوتها تنوق الى مشاركته بالذي يعذبه .

— لا شيء !

اجابها باندهاش منزعج ، دون ان يحوّل بصره اليها .

نظراته ضمن مساحة الارض ما بين قدميه . كنفاه يتهدلان اكثر

فاكثر . حاجباه ينعقدان بعصبية ظاهرة على افكار متعددة ، تصطرع
في ذهنه .

والشمس ترتفع توقف امامها فجأة صامتاً •

— ما بك ؟!

— •••••

الغرق يتفصد من جبهته • حاجباه يرتخيان قليلاً •

— اظنك تتألمين بشدة ؟!

سألها برفق ادهشها • كانت لا تزال مضطجعة على بطنها بسبب

اصابتها •

— لا •

اجابت برقة ، وازافت متسائلة :

— وانت ؟!

— •••••

كان قد عاد يذرع ارض المر • عيناه ضمن مساحة الارض بين
قدميه ، وكتفاه يتهدلان اكثر فأكثر ، في الوقت الذي امتدت فيه يد
مارسيل الى مفتاح المذياع

* ايها السادة المواطنين :

تشير جملة من الدلائل الى ان الازمة التي عانينا منها طويلاً ، آخذة
طريقها الى انفراج نهائي ، عبر اتفاق يرضي الاخوة المتنازعين كافة •
هذا •• وقد صرّح مصدر موثوق به : هناك احتمال كبير ان يعلن
السيد الرئيس المكلف عن تشكيل حكومة للاتحاد الوطني ، خلال هذا
النهار ، او — على اكثر تقدير — في ساعة متقدمة من هذه الليلة •
كذلك نعود لنذكر الاخوة المواطنين •• الى ان جميع طرق
العاصمة والمنافذ المؤدية اليها ما زالت غير آمنة ، وغير سالكة •

« الطلعة » التي شارك فيها (قنص القنّاص) — بما تمخضت عنه —
وضعت وجهها لوجه — للمرة الاولى — امام ذاته من جهة ، وامام ذوات
الآخرين من جهة اخرى .

في البدء : اثناء مناقشة الخطة بين كل من ابراهيم وحنا وبولص
ردّد اسعد مع نفسه بقهر :

« هم يتعمدون اغفالي !! .. كأي لست رجلا مثلهم !! »
ووجد عزاء في :

« انا — لو أرادوا الحق — اكثرهم شجاعة ، واكبرهم مقدرة على
رسم خطة محكمة تنتهي بعودة الجميع سالمين . »
ليس هذا فقط :

« .. فالا هم : ان نأسر قنّاصا ، نستطيع باستجوابنا له ان نعرف
الكثير من أسرار العدو »

وعندما حاكمته جميلة بسؤالها المستفز :

— هل انت ذاهب معهم !?

وجد تبرير ترفعه عن الاشتراك بقوله :

— هم مجانين ! .. يظنون بأن القضاء على قنّاص واحد سيضع
حدّا حاسما للحرب القائمة !!

لو كانت جميلة أوسع افقا ، ولها في السياسة بعض ما لديه من
اطلاع ، لاضاف :

— هم يمارسون سلوكا برجوازيا ، يدل على نظرة قاصرة ، متطرفة ،
احادية الجانب !

لكن قناعة جميلة ...

— انت غبي كبير !

زعزت — وبشكل جذري — ما كان قد اقتنع به ، من خلال محاولته
تبرير موقفه امامها . وتبنى — بعد تردد قصير — موقفا جديدا مناقضا
للالول :

— هو يفتنم فرصة حديثهم عن السلاح ، ويتقدم باعتذار صادق .
الظرف . الاصابة . الزوجة . العاطفة العائلية تتغلب على الخس الثوري
... لهذا وذاك هو يعرض عليهم مشاركته معهم .

عن القيادة :

— لا بد لقائد مجموعتنا ان يكون مثقفا .. له المام واسع
برسم الخطط ...

فلا يستطيع اسعد ان ينكر نزوعه المعضب اليها . هو — بطبعه —
يكره الاتقياد لسواه . ايا كان الشخص ، وضمن اية ظروف كانت .
اضافة الى قناعته المطلقة :

« انا افضل الجميع خبرة وثقافة ! »

كذلك لا يستطيع اسعد انكارا :

« آلمني حنا كثيرا .. جرح احساسى ، عندما قال : لن نكلفك
مسؤولية قيادتنا ! »

لكنه وان كان قد حمل ضغينة في دخيلة نفسه على حنا في البدء ،
نراه سرعان ما يزيلها — بكل ما ترتب عليها من آثار — بعدما كشفت له
الاحداث اللاحقة طيب نوايا حنا وصدقه واخلاصه ، والا هم : عدم
تقصده الاساءة اليه .

للافتصال عن الثلاثة الآخرين •

— انا ماروني !

قال حنا مشيرا لصدرة ، واطاف مشيرا نحو الثلاثة :

— وهؤلاء من الشياح !

الرجل الرشاش ينقل نظراته عليهم • حنا يواجهه بضراعة منفعلة
كما البكاء :

— هم في طريقهم لاختطافي ، ولولاك انت ••

— مجرمون !!

قال الرجل الرشاش بحقد ، ولم يتردد اكثر •

— جرّدهم من اسلحتهم !

— حاضر •

اجاب حنا ، بلهجة تنم عن فرحة بالانتصار •

جسامة المفاجأة • هولها • عدم توقعها • كل ذلك لم يسنح اسعد الفرصة

كي يصرّح عن رأيه بحنا ••

— خائن !! •• قذر !!

واقترب حنا •

— وجوهكم الى الحائط !!

صوته ينزّ كراهية •

— •• ارفعوا ايديكم !!

ثم جرّد الثلاثة من اسلحتهم •

— والآن !?

تساءل ، وهو يقترب من الرجل الرشاش لينضم اليه ، فاجابه الآخر :

— نذهب بهم الى المقرّ ، ونرى ما يقررونه بشأنهم •

— حسنا •

قال حنا ، والتفت الى الثلاثة آمرا بصلافة لم يعتدها أسعد :

— امامي !! •• يا أبناء الـ ••

لكن الرجال الخمسة لم يقطعوا من الطريق الى المقر سوى
خطوات معدودة •

حنا وهو يسوق الثلاثة امامه التفت الى الرجل الذي يسير بحاذاته •
- انا لم ارك من قبل !

قبل ان يعاجله بضربة ساحقة ، خاطفة ، من كعب المسدس
في جبهته •
- أأأ !!

صرخة خافتة ، تهاوى بعدها الرجل على الارض • الظلام ، الصمت ،
عدا ضجيج محرك سيارة في الشارع الآخر ، الخطر يحدق بهم ، مثلاً
باحتمال مواجهتهم لمسلحين آخرين •

اسعد لم يستطع منع نفسه عن ان يهmers بفرح لاهث :
- رائع !!

مبنى المقر - بمن فيه - يتعد عن ذهنه الذي بات عاجزاً عن متابعة
سير الاحداث بسرعتها الجنونية تلك •
ابراهيم لم ينبس بحرف • عاد وانحنى على الرجل • مدّ يده ،
واطبق بها على الرشاش •
- بسرعة !!

غمغم بولص ، واتهمّ بلهجة محدّرة :
- الوقت يسبقنا !!

- سحب جسد الرجل عن منتصف الطريق ، حتى لا ينكشف امرنا
قبل انتهائنا من مهمتنا !
قال اسعد ، بيد ان الآخرين سبقوه الى المبنى ، لولا التفاتة من
ابراهيم •

- انت على حق هذه المرة !
وعاد ، متعجلاً باتجاه اسعد •

مدخل المبنى باضاءة خافتة ، ورجل مستغرق في النوم على اريكة خشبية الى جانب الجدار المرمري •
بولص يتسلق السلم بخفّة بدأت تتباطأ ، حتى تحولّت الى لهات عند نهاية الطابق الثالث •
- تتوقف قليلا !

همس ابراهيم • فاجابه حنا بالخفوت ذاته •
- قليلا •

الصمت والظلام يخيّمان على المبنى ، سوى ضوء ضعيف يتسلل عبر السلم ، قادما من طابق أعلى •
- لو كنّا في ظرف آخر لاستعملنا مصاعدهم الفاخرة !
همس اسعد بتعليق ساخر لم يلق تجاوبا ما •
- هيا !

غمغم بولص ، وهو يعاود التسلق •

ازدادت قدرة الضوء القادم من فوهة السلم على الانارة لدى وصولهم الطابق الرابع •
- بقي طابق واحد !
وارهفوا آذانهم • اصوات غير واضحة تتسلل مع الضوء عبر

فوهة السلم •
انقلت ابراهيم مسرعا باتجاه الدهليز ، حيث الظلام أشد كثافة ،
فلحقه الآخرون •

— هم أكثر من واحد !
ردد ابراهيم بخفوت ، فأجابه بولص :
— سأحاول ان اعرف عددهم !
ولم يمهل الآخرين وقتا للمعارضة •

بولص يرتقي الدرجات الموصلة الى الطابق الخامس ببطء حذر ،
وابراهيم يقف متحفزا عند ناحية السلم ، واصبعه على زناد الرشاش
الامريكي •

« لو انه خلع حذاءه ! »

لكن بولص — ومن غير ان يصدر اي صوت عن قدميه — يتوقف
عند الثلث الاخير للسلم • مساحة الضوء تشمله اكثر • يمسك رقبته • تمر
ثوان ، قبل ان ينحدر بالحذر والبطء الشديدين اللذين صعد بهما •
— انسان !

همس بولص وهو ينضم مع ابراهيم الى حيث يحتمي حنا واسعد •
— .. يجلسان في الممر ، امام الباب المغلق لغرفة الخدمة • عاد الى
الهمس ، و اضاف متمما :

— احدهما يتسلح ببندقية ذات ماسورة طويلة ، اما الرجل الآخر •
وصمت لدى سماعه ضحكة مبتورة صدرت عن احد رجلي
الطابق الخامس •

حبس الاربعة انفاسهم برهة ، همهم بعدها حنا بحقد :

— ماسورة طويلة ! .. سيّاد محترف !!

— الثاني غير مسلح •

قال بولص ، فآثم حنا :

— لعل مدفعه الرشاش ما يزال مثبتا على قاعدة نافذة غرفة الخدمة !
— اسمع !!

فأصاخ الآخرون اسماعهم ، واستطرد إبراهيم موجهًا سؤاله لبولص :

— ما الذي يفعلانه بالضبط ؟!

— لا شيء ..

وحبس زفرة كادت تنفث من فمه ، وأتمّ على الأثر بصوت اسيف :

— اظنهما أنها شربهما قبل قليل • رأيت مجموعة لا بأس بها من

زجاجات البيرة فارغة ، مرصوفة الى جانب الجدار •

— يقضيان وقتًا ممتعًا !

ردد اسعد بغضب مكتشف ، وتحدث بولص بلهجة مشوبة

بالاندهاش :

— خيل اليّ ان وجه الرجل الاقرب منهما الى السلم ليس

غريبًا عليّ !

فتدخل اسعد بنبرة شاكة هذه المرة :

— كل هذه الملاحظات من نظرة خاطفة !!

لكن بولص — نتيجة انشغال ذهنه — لم يلتفت لتدخل اسعد ،

واكمل بالاندهاش نفسه :

— هو .. يشبه الى حد كبير احد الشبان الذين لا عمل لهم

غير التسكع في شارع الحمراء !

— بهذا أصبت •

قال أسعد ، واستطرد :

— لان فرص الارتزاق ...

فاعترضه ابراهيم مؤنبًا :

— الأخرى بنا ان تفكّر بالتنفيذ اولا !!

وكان التنفيذ يعتمد — بالدرجة الاولى — على عنصر المفاجأة •

ابراهيم يصعد قبل الآخرين • يقتحم المكان •

— ارفعوا ايديكم !!

بعد ذلك يجيء دور اسعد وحنا ، حيث يقومان بتجريد الرجلين

من سلاحهما •

— بهذه الطريقة ...

قال ابراهيم •

— ننجز مهمتنا دونما حاجة لاطلاق النار ، ومن غير ان نلفت اهتمام
مجموعاتهم الاخرى المنتشرة في المنطقة •

فانبرى اسعد :

— فكرتي ايضا • نأخذهما اسيرين

لكن الرجلين — وقد اخضعا لمفاجأة غير متوقعة لديهما نتيجة
اطمئنانهما المطلق لمكمنهما — تحفّزوا بحركة لا ارادية للدفاع عن نفسيهما،
مما اضطر ابراهيم للضغط على زناد الرشاش •

بعد ذلك توالى الاحداث بسرعة غريبة •

— هيا !

صرخ ابراهيم ، وانطلق يسبق الثلاثة الى السلم •

— اين بولص ؟!

— ها أنا !

اجاب الاخر من ورائهم لاهثا •

— أسرع أكثر !

....

الى جانب جدار المدخل كان البواب جالسا على اريكته •

— أه !!

وبقي فاغرا فمه دهشة ، وفزعا ، فوهة الرشاش تواجهه •

— اين بولص ؟!

تساءل ابراهيم بقلق ، فوصله صوت بولص من عند السلم

— وصلت !

وقبالة الباب مجموعة من الرجال المسلحين • طلقات ابراهيم فعلت

فعلهما في الحي •

— اسرعوا !!

صرخ ابراهيم ، وركض امامهم • لا بد له من الاعتماد على عنصر

المفاجأة ثانية ، وفتح النار في المتجمهرين •

النار ، الاقتحام • الاصابات • كل هذا تسبب في ايقاع الاضطراب
بين المتجمهرين ، قبل ان تتوارد الى المكان مجموعات اخرى - محمولة -
مسلحة •

في تلك الاثناء وصل ابراهيم سور حديقة الكنيسة ، ثم لحق به
على الفور حنا ، فأسعد •

- وبولص ؟!

- هذا انا !

اجاب بولص لاهثا وهو يتلقى جدار السور بكفّيه ، واضاف من
بين انفاسه المتقطعة :

- يجب ••• نسرع ••• هم ••

المطاردون يقتربون • يتنادون

- السرعة !!

وبالسرعة التي هتف بها ابراهيم تسوّر الاربعة سور الحديقة •
بولص كان آخرهم •

- لو استطاعوا تطويقنا لاتتهينا !!

اغصان الاشجار تلطم وجوههم • الجانب الآخر للسور امامهم •

- لو تخطيناه !!

غمغم ابراهيم ، وتذكّر :

- بولص !

- انا هنا !

كان الاخير يشق طريقه اللاهث بين الاغصان من ورائهم •

- اسرع !

المطاردون يصلون الجانب الابعد للسور • الرصاص • ابراهيم

يتسوّر • اسعد يلحق به • حنا - وهو يتسوّر - يلتفت •

بولص - وهو يتهاوى من تحته - يصرخ بلوعة تنضن طاب

الاستغاثة :

- تعبت !! •• لا استطيع !!

وفي اللحظة التي مدّ فيها حنا يده باتجاه بولص صدرت عنه
صيحة ألم مكتومة :

— آي !!

وكاد ان يتداعى الى جانب بولص لولا طباقه قوية من يد ابراهيم
جاءت على رقبته .

— اين اصبت !?

وباليد الثانية سحبه من ابطه .

في انسحابهم لم يسلكوا الطريق الفرعية ..
— من هنا !!

ثم اجتاز ابراهيم المنحدر وهو يتلقى ثقل جسد حنا على كتفه .
الرصاص ، وارهف اسعد اذنيه ناحية سور حديقة الكنيسة ، علّ صرخة
ما تصدر عن بولص .

وهم يحتمون بواحد من جدران بيوت الشياح — بعد زوال خطر
المطاردين — تساءل ابراهيم ، وهو يسند جسد حنا الى الجدار بمحاولة
منه لالتقاط انفاسه :

— تتألم بشدة !?

لكن حنا لا يجيب مباشرة .

— اتدري !?

قال بعد صمت قصير ، واكمل بصوت متهدّج :

— بولص كان عظيما !!

فقصّت الكلمات في فم اسعد :

— هو .. لم .. يصرخ !!

لحظة الافتراق واجهه ابراهيم

— التزيف : حنا بحاجة . المقاومة : انا بحاجة . السرداب :

هم بحاجة ...

والماء نقد . اسعد — منذ الآن — المسؤول الوحيد . القائد الوحيد .

وما عليه الا ان يتخذ القرار .

نسوة ثلاث • مراهقة • طفل • ذلك هو الشعب الذي يتوجب
على اسعد ان يسهر على رعايته •
ترددت في داخله صرخة بولص المستغيثة :
- لا استطيع !!

فاجتاحته رعدة • اما كان الاخرى بأسعد ان يعود اليه •
يمدّ يد المساعدة ، لكن الرصاص ... الموت !
والمرارة في فمه تذكر بادرة ابراهيم : كان الاخير قد اطبق يديه
على حنا المصاب • سحبه من فوق سور حديقة الكنيسة • تلقفه بين
ذراعيه ، ليركض به ، واسعد شغله خوف الموت عن التفكير ببولص •
« لماذا تجيء الافكار الجيدة متأخرة ؟ ! »

هو منذ اليوم لن يرى بولص •
« المجرمون !! »
صرخة حاقدة ترددت في صدره ، تذكر على اثرها اصابة زوجته •
وقف - ثانية - امامها •

- انت بحاجة للذهاب الى مستشفى !
صوته الحزين لا يبعث لديها دهشة غاضبة •
- ليس قبل انتهاء الحرب •
أجابت بعجز ، فالتفت ناحية زينب •

— من منكم بحاجة الى الماء !؟

فاجابت الاخيرة بقناعة رقيقة :

— حتى لو كنا نحسّ العطش لما رضينا بخروجك في مثل هذا الوقت !

واشارت بيدها ناحية النافذة ، مؤكدة خطر مغادرته السرداب ،
والقصف على أشده .

عند الضحى كفّ اسعد عن ذرع ارض المر الضيق ، واتخذ مسن
سلم السرداب مكانا لجلوسه .

هي المرة الاولى التي يشعر فيها بنوع من التعاطف والودّ العميقين
لاولئك الجالسين في الداخل .

جميلة بجرحها اللعين . مارسيل : « اظنه سقط على الارض حال
اصابته ! » زينب وزوجها .. المقاومة .

اما عن فائزة : فرغبته الجنسية — ان اراد الحق — ما عادت
محتدمة كما في السابق .

واخيرا الطفل الذي بدأ يعول . الملعبات لم تنفد بعد . اذن
هو العطش .

كانت الساعة تشارف الثانية عشرة ظهرا عندما اقترب اسعد منهم .
الخوف . التردد . القصف . القلق . وبصوت يشي بما في داخله
من صراع قال :

— آن اوان خروجي لجلب الماء على ما أظن !
احساسه بمسؤوليته عنهم ازداد تراكما من خلال العويل
المتواصل للطفل .

— لو خرجت الآن لما حصلنا على ماء !
رددت مارسيل بتقريرية واثقة ، ولما تطلع اليها أسعد مندهشا أتمت :
— .. لأنك ان وفقت بتفادي خطر الاصابة في الذهاب ..
هزّت جميلة رأسها مؤيدة ، وتدخلت زينب :

— لن نموت لو صبرنا عن الماء ساعات اخرى •
— والطفل؟!
تساءل اسعد بلهجة يشوبها القلق ، فأجابت :
— والطفل ايضا لن يموت •
— لكن...
وصمت • هذه الحيرة التي تلقيه في التناقض مع نفسه ، فانبرت
فائزة تقترح :
— لم يبق عن المساء كثير وقت • مغادرة السرداب في الظلام
اكثرا امانا •
صوتها يطفح بمشاركة لم يعهدها • الفرح يتوالد في داخله •
هم يحرسون عليه • هو رجلهم •
وعندما سرق نظرة خاطفة من فائزة ، كانت الاخيرة تبسم
له بود •

مع مغيب الشمس اقترب اسعد للمرة الثالثة •
— سأذهب !
صوته الحازم لا يقبل مجالا للمناقشة • العتمة داخل السرداب
اشدّ مما هي عليه في الخارج ، وما جرؤ احداهن على التفوه بحرف ،
عدا غمغمة مخنوقة صدرت — متأخرة — عن جميلة :
— كن حذرا !!
قالت على أثر تخطي اسعد لسلّم السرداب ، واستندت على كتفها
رافعة جسدها بتثاقل •
هي — على الرغم من جرحها — بحاجة لمتابعة خروج زوجها ، في
الحين الذي امتدت فيه يد مارسيل الى المذيع •
كانت بصدد اغلاقه • صدمته ، فانقلب • الموسيقى الحماسية
تواصل خشختها •
— أأأ !!

صيحة جبيسة انبعثت من فمها • منذ ثلاثة ايام انقلب المذيع فبي

مكانه هذا عندما امتدت اليه يد بولص •

— ما بك ؟!

— •••••

ولم تلتفت ناحية زينب • بطاريات المذياع — يومها — كانت أكثر
قوة • وبولص •••

لكن الانقطاع المفاجيء للموسيقى يقطع عليها تسلسل انفعالاتها ،
وصوت المذيع :

* ايها المواطنون •••

— •••••

يشد سمعها • لهجته الحاسمة تشحذ ترقبها • زينب — بدورها —
تشاركها الترقب ، وكذا جميلة • صوت المذيع يجيء — بعد ثوان مسين
الصمت المتوتر — مشحونا بانفعالات يصعب تفسيرها :

* بعد قليل نذيع عليكم خبرا هاما !!

وهو يرتقي درجات سلم السرداب تذكر المبنى البعيد • ليلة امس الاول ، والقناصين اللذين تمّ الاجهاز عليهما •

الغسق لا يزال يبقايا من ضوء رمادي ، وعندما اطلّ برأسه خيّل اليه ان نافذة غرفة الخدمة في الطابق الخامس من المبنى البعيد مفتوحة ايضا •

من يدري ... لعلهم وضعوا بدل القناصين الميتين ، قناصة آخرين •

حدة الانفجارات لم تخفّ بعد ، لكن مساحة الشارع التي امامه لا تتعرض - هذه اللحظة - لاطلاق نار •

وقبل ان يغادر مكانه التقط انفه رائحة خشب محروق ، فحانت منه التفاتة الى الجانب الآخر •

ألسنه النيران تنبعث - حمراء ، في نور الغسق - من النوافذ العليا لمبنيين مجاورين •

« متى اشتعلت هذه النيران »

« - الرجاء : افساح المجال امام رجال الاطفاء • وعدم التعرض لهم باطلاق النار عليهم • »

كأن كل هذا الخراب ما عاد كافيا • ستظلّ النار مشتعلة حتى تأتي على كل ما امامها • لعل القصف الذي اشتدّ ظهر اليوم هو السبب •

ولم ينتظر اكثر • مساحة الشارع - الغالية - تنفرش امامه •
دفع قدمه بالارض قويا ، وانطلق • شيء ما يصدى الاسفلت مسا
بين قدميه • ازيز حاد • وصوت اطلاقات مدفع رشاش يتردد في البعيد •
« أنذال !! »

واستقبل الجدار المواجه بذراعيه • حدسه لم يخب اذن •
« خونة !! »

هو لن يمنحهم فرصة قتله • واحسّ بالانتشاء يتكاثف في صدره •
سيخرج ... وسيحصل على الماء .. وسيعود سالما .. رغم انوفهم ،
ومن نافذة السرداب انبعث صوت زينب مأخوذا ، والها :
- أسعد !!

فرفع يده اشارة على سلامته ، وانطلق ماشيا بمحاذاة الجدران ،
بخطوات خفيفة ، مرنة •

بقالة اولى • ثانية • ثالثة • رابعة • ولا جدوى • نصف ساعة منذ
ان غادر السرداب • هل يعود اليهم من غير مساء ؟!
الطفل ، وهذا العطش الذي بدأ يعاني منه أسعد نفسه ، لعائهم
اشد ، والحرب ، لا احد يستطيع تحديد ساعة توقفها •
من المحتمل ان تظل يوما .. اسبوعا .. شهرا •

بقدوره ان يصنّف حوانيت البقالة التي مر بها الى صنفين • الاول :
بأبواب مشرعة ، لكنها خاوية ، والثاني : بابواب حديدية متينة ذات اقفال
كبيرة لا قبل له عليها •
والشياح كبيرة - ليس كما عهداها - طرقات ، وازقة ، تلتحم
فتتفرع ، لتتغلغل اكثر واكثر •
« هل يواصل ؟! »

ولدى احد المنعطفات صدمه صوت آمر :
- قف !

فتسمّر في مكانه • المفاجأة • الفرع • وموجة من البرد تجتاح

عموده الفقري •

— ارفع يديك !

فيمثل مباشرة •

— من انت ؟!

— انا ...

قبالته يقف شاب فدائي مسلّح برشاش • الخوف يبدأ طريقه الى
الانحسار • ذراعاه ترتحيان قليلا •

— جئت ابحث عن ماء للشرب !

الآخر يتفحصه برية • ذراعاه تتصلبان ثانية • الخوف •

— .. في سردابنا اطفال !

—

غصة بكاء تتجمّع في حنجرته •

— منذ يومين .. ونحن ..

فقاطعه الشاب :

— تعال !

قال له الشاب وهو يسلمه القنية البلاستيكية المثلثة بالماء :

— اقتصدوا باستعمالها !

— حاضر •

اجاب اسعد بلهجة عسكري منضبط ، اعتاد على تلقي الاوامر
وتنفيذها • فتلوّن صوت الشاب بحسّ ودي مصارح :

— الاشتباكات — على الاغلب — ستتوقف هذه الليلة •

ثم ابتسم مطمئنا ، و اضاف :

— .. لكن الاحتياطات ضرورية •

الامثال الرفاقي في صوت اسعد :

— حاضر •

وهما يبدآن سيرهما سأله الشاب :

- اين تسكن ؟
- في الطرف الآخر •
- قال اسعد ، وشحن صوته :
- .. قبالة عين الرمانة •
- الاهتمام يظهر على وجه الشاب •
- قد تتعرض للخطر !!
- فابتسم اسعد بارتياح مفاخر ، وسعور بالندية يملأ جوانحه •
- ياما تعرضت !
- صحيح ؟!
- تساءل الشاب من غير مبالاة كافية ، في الوقت الذي كان فيه اسعد بصدد الاسترسال متحدثا عن العملية التي خطط لها ، ونفذها تنفيذا دقيقا كاملا ، بمشاركة رفاق ثلاثة ، لم يخلوا عليه — وهو القائد — لا بالجهد ولا بالتضحية •
- وعلى الرغم من الاحباط النفسي الذي تعرض له ، قرر اسعد ان يفتح صدره للشباب •
- قبل ليلتين ...
- لكن توقف الشاب عن متابعة السير •
- آسف ! .. لا بد من افتراقنا هنا !
- الجم لسان اسعد للحظات ، تمتع بعدها بخذلان يمين :
- لا بأس •
- الشباب يبتسم بوجد •
- كن على حذر !
- حاضر •
- قال مضطرا ، وتابع سيره زامًا شفثيه على احساس دخيل بالنقمة من الوضع عامّة •
- « الحرب ! .. تفو ! »

ما ان وصل شارعهم حتى فغر فاه دهشة ، ووقف مأخوذاً •
 السنة النيران - التي كان قد رآها تنبعث من النوافذ العليا
 للمبنيين المجاورين لسكنهم - ازدادت عتواً وعلواً ، فبدت وكأنها
 مشاعل هائلة وضعت خصيصاً - في اعلى المبنيين - بقصد اناقة
 الشارع ... الظلال تتراقص ، والضوء ...

تذكر فيلما سينمائيا شاهده قبل سنوات « آخر ايام بومبي » •
 « البركان ينفجر • حممه تغرق المدينة • النيران تنتشر في كل مكان •
 الليل نهار احمر مشتعل • جحافل الناس تزدهم على رصيف الميناء •
 الاضطراب • الصراخ • السفن » • النيران - الآن - اقل حجماً ، لكن
 اسعد وحده •

هذا الشارع - كما هي حال الشوارع الاخرى - مقفر تماما ،
 والنافذة البعيدة لغرفة الخدمة ...

ركز بصره على البعيد • لم ير شيئاً •
 بيد انهم هناك • اثناء مغادرته السرداب اطلقوا النار عليه • الآن
 سيرونه بوضوح اكثر لحظة اجتيازه • سجددون هدفهم « - هو - »
 بدقة ، وسيطلقون ، ولا فرق في ان يظل مختبئاً او لا يظل ، فالنيران
 ستبقى مشتعلة ، وستزداد • « لا رجال مطافيء » ، كذلك فان عطش
 الطفل « ابن ابراهيم » سيزداد • الحل الوحيد ••

وتداعت في ذهنه كلمات بولص :
 - انحن قدر الامكان • اركض باسرع ما تستطيع ، وبخط متعرج •

وما أحسنّ بالغصّة في فمه • وضعه الخاص شغله عن استعادة
ما حدث عند سور حديقة الكنيسة •

الظلال - عملاقة - تتراقص ، والنيران • • الصق ظهره بالجدار ،
وحدد بصره في نافذة السرداب عبر الشارع •
ترى • • • هل هم يراقبونه ؟! • • وهذا الاعياء الغريب الذي يحسّ
في ركبتيه لا يمكن أن يكون بسبب الخوف !!
- جميلة !!

صرخة مفاجئة صدرت عنه • خيل اليه - في البدء - ان صوته
غريب على اذنيه •
الليل • الظلال • النيران • وحده ، كما في كوكب آخر يشتعل ،
لكن صوتها العاتب • • المشارك • • المنبعث عن ظلام النافذة •
- لماذا تأخرت ؟!

بدّد احساسه الخائق بالتوحد ، وسرت في جسده موجة دفء •
هم بانتظاره •
اطبق اصابع كفيه على عنق قنينة الماء ، ودفع الجدار بظهره ، بكل
ما لديه من عزم وتشبث بالحياة •

« حدثت هذا !! »

طلقات المدفع الرشاش تنزّ من حوله وبين قدميه •
- قتلة !!

صرخة عاتية انطلقت من فمه ، وبذل مزيدا من الجهد كي يركض
باسرع ، لكن ضربة هائلة هادئة خارقة القوة فاجأته على خاصرته •
« لا !! »

كلمة خاطفة انفجرت - لا اراديا - داخل رأسه ، وانقذف في
الهواء •

لم يشعر بالارض وهي تصدم ظهره بقوة • كان قد فقد وعه للوهلة الاولى ، وعندما افاق بعد لحظات خيل اليه ان صوتا ما واهنا ،
مفجوعا ، يناديه من على بعد سحيق :
- أسعد !!

حاول ان يركّز افكاره • خدر كريحه حادّ يتنمل في اطرافه ، ودواز
عنيف - يبعث على الغثيان - يجتاحه • فتح عينيه • الغثيان يبدأ انحصارا
متباطئا • السماء صفراء •• تدور • مال برأسه جانبا • المباني صفراء ••
تدور • السنة النيران صفراء •
- اسعد !!

الصرخة الواهنة تتردد في البعد السحيق • الاجهاد ••• وجفناه
ينطبقان غصبا عنه •
الغثيان • الغثيان • امعاؤه تتلوى • تنخبط • تصطرع •
فحبس انفاسه ، ليفتح - بعد جهد شاق - جفنيه • اللون الاصفر •
المرئيات تدور • والغثيان يعاود انحصاره التدريجي ، المتباطيء •
« اين انا ؟ ! »

سؤال مندهش ، مهزوم ، ينبعث في ذهنه ، وصيحة واهنة بعيدة ،
تلحّ عليه •
- اسعد !!

فتشتت قدرته على تركيز افكاره •
« اللعنة !! »

رويدا رويدا تواردت الصور •• الطريق • العبور • قنينة
الماء • السرداب •

« قذيفة ؟ ! •• أم رصاصة ؟ ! »

تذكر خاصرته • فكّر بتحريك يده •
« أأ •• »

فرحة صغيرة • يده تطاوعه • تتحرك - على الرغم من بطئها -
باتجاه خاصرته • نبع من سائل ساخن يتدفق - لزجا - بين فرجات
اصابعه •

« دم !! »

وداهمته رغبة عنيفة جيّاشة لان يبكي

« قتلوني !! »

الاختناق في صدره • في حنجرته • في فمه • وتشنّجت عضلات
فكيه • بكى بحرقّة طاغية •

الصوت الواهن يتردد :

— أسعد !!

والدفء — مع جهد البكاء — يتسرب من جسده • الاحساس بالبرد •
الحياة هي التي بدأت تتسرب من جسده •

« لا !! »

وكفّ عن البكاء • صرّ على فكيّه • الدفء يكف عن التسرب ••
شيء غريب ان لا يشعر بالالام !

الخدر يزحف من اطرافه صعودا الى الجذع • مع الخدر تملكه
احساس جديد بالسكينة ، فصفا ذهنه •

« الملحمة الشعرية بحاجة لاعادة نظر جذرية ! » وشعر للمرة
الاولى بأنه فلسطيني ، ليس كما كان في نابلس او عمان • او بيروت •
« المقاومة ••• انا بحاجة ! »

— أسعد !!

صوت جميلة يصله قريبا وواضحا •

« فجعت باصابتني !! »

بيطء شديد ادار رأسه باتجاه مصدر الصوت • المرئيات — على
بعد امتار منه — تتداخل ، تمتزج ، وعلى البعد الاقرب •• « قنينة
الماء !! »

— أسعد !!

« متى تفهم ؟ ! »

وبذل جهدا جبّارا كي يحرك يده مشيرا •

ضوء الحرائق ينفذ داخل السرداب • ظلال النسوة الاربع
المنزاحات عند النافذة تتراقص على الجدران •

— هو لم يمت !

قالت زينب ، ولم يجد قولها صدى لدى الاخريات • جسد أسعد
مسجى في الطريق ، على مسافة امتار قلبلة •

— قبل قليل رأيت يده تتحرك !

— •••••

قنينة الماء مسجاة غير بعيد عنه ، والراديو الترانزستور الذي
نحسي الى جانب العمود •••

* ايها الاخوة المواطنون ••• بعد دقائق فقط نذيع عليكم خبرا
مصريا هاما •••

عويل الطفل يزداد ارتفاعا •

— أسعد !!

ما كانت جميلة قد كلت من الصراخ بعد ، وصيحة فرح مندهش
تصدر عن فائزة :

— انظرن الى يده !!

السنة النيران كانت قد تعالت فجأة •• الرؤية بوضوح اكثر ، وذراع

اسعد ترتفع لترسم ظللا طويلة متراقصة على ارض الشارع •

– صحيح !

اصابع جميلة ترتخي من على حديد النافذة • تنسحب • تنهالك على الارض معولة بسعادة جامحة ورافضة في الوقت نفسه •

– يده تشير إلينا !

هتفت فائزة ثانية ، واجابتها زينب باقتناع واثق :

– انا رأيتها منذ قليل أيضا !!

الفرح الغامر الذي عمّن بعث الاضطراب – جليًا – في نفوسهن •

– هو بحاجة لمساعدة !!

قالت مارسيل دون ان تحوّل عينيها عن الشارع ، فجُمّعت فائزة

جراتها ، وتطلعت في وجه امها •

– انا اخرج اليه !

–

وردّا على الصمت الحائر لزينب استدارت مارسيل ، وواجهت

فائزة •

– وحدك لن تفعلي شيئًا !

– لكن ...

وتنقل نظراتها – حائرة – ما بين وجه امها ووجه مارسيل ،

فتستطرد الاخيرة :

– يجب علينا – قبل كل شيء – ان ننقله الى هنا •

وعندما جوبهت بصمت مصغ أتمت :

– لو خرجنا اليه هكذا لتعرضنا بدورنا للرصااص •

الصمت الممثل يمتد •

– ... نزحف اليه ، ثم نسحبه معنا بهدوء .. تلك هي الطريقة

الاسلم •

التصميم يتجسّد في قسّات وجه زينب ، وفي اللهجة المتحمسة

لفائزة :

— هيا بنا !!

زخم الشباب واندفاعه هو الذي أوصل فائزة الى جانب اسعد ،
قبل كل من زينب ومارسيل •

جميلة — التي لم تزايلها نوبة البكاء المستيري مزايلة تامة —
لازمت — وبسبب من جرحها ايضا — عند المدخل، بناء على امر
من مارسيل •

ذراع اسعد ما زالت — مستندة الى كوعها — مصلوبة في الهواء •
أرهفت فائزة اذنيها •

تنفس أسعد اشبه بشخير غير منتظم • يعلو ليكفّ ، ثم يعلو
بأشدّ •

رعدة فزع تجتاح جسدها • تعضّ بأسنانها على شفقتها • ترهف
اذنيها لثوان •

الشخير يتحول الى غرغرة كريهة • الذراع المنتصبّة تسقط •
جسم اسعد ينتفض • أطرافه تتشنج • ترتخي •

السكون • وريح خفيفة رطبة تهبّ • السنة النيران تتعالى • الضوء
ينتشر والظلال ، ثم اطلاقه رصاص واحدة بعيدة بصدى عال •
التفتت ناحية المرأتين • المرأتان تكفّان عن الزحف • واتهاى فكرة •
ما كانت قد عايشت الموت •

« لعله لم يمت ! »

فزعا يصطرع مع اصرارها • يجب عليها ان تتأكد : « اسعد لا
يزال حيّا »

اطلاقه اخرى في البعيد •• تجمّد جسدها لحظات • السكون •
وزحفت خطوة • جسم اسعد يكاد يلامسها • رفعت رأسها • أمالته •
الصقت اذنها بصدرة • الصمت • رفعت رأسها • اطلاقه ثالثة • اعقبتها
على الفور رشقة سريعة من مدفع رشاش • أزيز حاد ينبعث عن
الاسفلت بالقرب منها • عليها ان تبدأ زحفها عائدة •

رشقة اخرى من المدفع الرشاش ، واحست كما لو انها تعرضت
لركلة عنيفة في ظهرها ، وشيء ساخن جدا - كمثل جمرة الفحم -
ينفذ في لحمها ، فالتفتت غير مصدقة • لا احد يقف خلفها • الركلة
الثانية بأقوى ، فتداعت •

من داخل السرداب ، وغير بعيد عن العمود - حيث الراديو
الترانزستور - انبعث صوت المذيع فرحا مستبشرا :
* ايها الاخوة المواطنين :
الكم هذا النبأ الذي انتظرتوه طيلة ايام المحنة •
صمت قصير •

* تمت قبل دقائق مراسيم تشكيل الوزارة • وزارة الانقاذ
الوطني ، كما سبق واطلق عليها السيد الرئيس المكلف ، وسنوافيكم بعد
قليل بتفاصيل كاملة حول توزيع الحقائق الوزارية •

تذييل

... وانت تترك شارع الحمراء متابعا سيرك غربا حيث تبدأ الارض
انحدارها التدريجي يطأ عليك البحر الابيض ازرق ، معاندا ، كبيرا ،
ممتدا بامتداد الافق .

احساس صغير يفرض نفسه عليك : « هذا البحر لا يبالي بكل الذي
يجري في الداخل »

وعندما تهب على وجهك نسماته برطوبتها ونداوتها ، حاملة رائحة
الماء والسبك ، قد يفامرك الشك في حقيقة ما يسمى صخرة الانتحار :
« أتى لمتانة الطبيعة هذه ان تشجع انسانا ما على قتل نفسه ؟ ! »



ولعل وجود البحر من جهة ، وبسبب من كون منطقة الروثة سياحية
قبل كل شيء من جهة اخرى ، هو السبب الذي نأى بها ان تكون مسرحا
للاشتباكات التي تعاني منها مناطق بيروت كافة .

لهذا السبب وذاك - وفي الاماسي على رجه الخصوص - كنت ترى
شلا صغيرة مسن السواح ، السعوديين ، والقطريين ، والكويتيين -
بسياراتهم الفارحة ، المحدودة - يتنقلون ببطء عبر مسافة لا يعدو طولها
الكيلومترين . يسعى كل منهم لئلا يتعرف على الاخر ، دون ان يفتوا فرصة
احساسهم بأنهم ما زالوا يصطافون . وفي لبنان بالذات .

للمؤلف

١٩٦٥	طبعة اولى	قصص	البقعة الداكنة
١٩٧٠	طبعة اولى	رواية	كانت السماء زرقاء
١٩٧١	طبعة اولى	رواية	المستنقعات الضوئية
١٩٧٣	طبعة ثانية		
١٩٧٢	طبعة اولى	رواية	الجبل
١٩٧٣	طبعة اولى	رواية	الضفاف الاخرى
١٩٧٤	طبعة اولى	رواية	ملف، الحادثه ٦٧
١٩٧٤	طبعة اولى	قصص	الاقفاص واللغة المشتركة
١٩٧٦	طبعة اولى	رواية	الشيّاح

على الحائط
كتابة بالطباشير
«هم يريدون الحرب»
والذي كتبها
سقط صريعاً ...
« بريخت »

دار الآداب

الشمس ١٢٥ ل. او ما يعادلها